

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الحادى والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الحادى والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٣

(أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(المساكين) : جمع مسكين ، وهو الضعيف العاجز ، أى كانت لضعفاء لايقدرون على مدافعة الظَّلَمَةِ ، ويشمل المسكين بهذا المعنى من كان ضعفه راجعا إلى نفسه أو إلى بدنه . وهو مخالف للمراد منه فى باب الزكاة . وسيأتى بعض التفصيل لذلك فى التفسير .

(وَرَآءَهُم مَّلِكٌ) : وراء هنا بمعنى أمام . فهو من المواراة والتغطية ، وهى كما تكون فيما خلفك تكون أيضا فيما أمامك . ولا خلاف عند أهل اللغة فى استعماله فى المعنيين

(فَخَشِينَا) : الخشية الخوف الشديد . (يُرْهِقَهُمَا) يُغْشى والديه ويُغطِّيهمَا .

(طُغْيَانًا وَكُفْرًا) : مجاوزة لحدود الله وكفرًا به . (زَكَاةً) :طهارة من الذنوب وفساد الأخلاق.

(رُحْمًا) : رحمة .

قال : رؤبة بن العجاج :

يامُنزل الرُّحم على إدريسَا ومنزل اللعن على إبليسَا

(كَنزٌ لَّهُمَا) : مال مدفون لهما . (أن يَّبلُغَا أشُدَّهُمَا) : أن يصلا إلى كمال قوتهما العقلية والجسدية ، وفى الصحاح : الأَشُدُّ القوة . وبلوغ الأَشُدّ يكون مابين ثمانى عشرة سنة إلى ثلاثين . وهو مفرد جاء على بناء الجمع ، مثل : (آنُك) ولانظير لهما ، وقيل هو جمع لا واحد له من لفظه . وقيل غير ذلك .

(تَسطع) : مضارع اسطاع بمعنى استطاع ، وهو أصله فخفف بحذف التاء .

التفسير

٧٩ - (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) :

أفادت الآيات السابقة أن سيدنا موسى عليه السلام قد نَفِد صبره من رؤْية تلك الأَحداث التى حدثت من الخضر عليه السلام ولم يجد لها مبررا ظاهرا يقتضيها ، وأن الخضر اضْطُرَّ لإِيذانه بمفارقته لنفاد صبره . وعدم تحمله مايراه حتى تنتهى رحلتهما إلى غاية أبعد مما وصلت إليه ، لكى يخبره فى نهايتها عن كثير من أسرار الغد التى يخفيها الله تعالى عن عباده ، ويختص بإعلامها بعض أصفيائه .

وجاءت هذه الآية ومابعدها لبيان ما انطوى وراء الأَحداث التى أجراها الخضر عليه السلام ، والمراد من المساكين هنا الذين لايقدرون على دفع الظلم عن أنفسهم ، لضعفهم فى النفس أو فى البدن وإن كانوا أغنياء ، قيل كانت لعشرة ، خمسة منهم زَمْنَى ، وخمسة يعملون فى البحر .

وهذا المعنى للمساكين غير ماقاله الفقهاءُ بشأْنهم فى الصدقات والكفارات ، فإن منهم من فسر المسكين بأنه هو الذى لا يقدر على مايقع موقعا من كفايته وكفاية من تلزمه نفقتهم ، كمن لايكسب أصلا أو يكسب دون النصف من كفايته ، والفقير عند هؤلاء أحسن حالا من المسكين فهو الذى يقدر على مايقع موقعا من كفايته وكفاية من تلزمه نفقتهم . كمن يكسب سبعة ولا يكفيه أقل من عشرة . ومنهم من فسره بالعكس . فالمسكين عنده أَحْسَنُ حالا من الفقير ، وسواءٌ أكان الفقير بمعنى الضعيف أم بمعنى المحتاج . فهو مأْخوذ من السكون ، فكلاهما ساكنٌ ذِلَّةً أو ضعفا ، أو فقرا .

والمعنى : أما السفينة التى خَرَقْتُهَا قبل أن تصل إلى الميناء ، فقد كانت لضعفاء من الناس يعملون فى البحر أى يكسبون رزقهم بها عن طريقه ، ولايقدرون على مدافعة الظَّلَمَةِ عن أنفسهم لضعفهم ، فأردت بخرقها أن أُحدث فيها عيبا يمنع الظالم من مصادرتها وأَخْذِهَا ، لوجود هذا العيب فيها ، ولم أُرِدْ أَنْ أغرق أهلها كما توقعت ياموسى[1]. وقد حكى الله عن الخضر – عليه السلام – السبب فى خرقه إياها بقوله :

(وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصباً) :

والوراءُ : اسم لما يتوارى عن العين ، سواءٌ كان خلفك أو أمامك ، فهو من أسماء الأضداد والمراد به هنا المعنى الثانى ، وبه قرأ ابن عباس : «وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ » .

والمعنى : وكان أمامهم أعوانُ ملكٍ ظالم يأخذون له كل سفينة صالحة من أصحابها غصبا وقهرا ، وذلك إمَّا على سبيل المصادرة والاستيلاء التام ، وإما على سبيل التسخير والاستغلال دون أجر ، ثم يردونها لذويها ، واستعمال الوراء بمعنى الأَمام شائع فى اللغة ، ومنه قول الشاعر العربى : أليس ورائِى أن أدب على العصا . . فيأمن أعدائى ويَسْأَمَنِى أهلى

ولم تتعرض الآية الكريمة لما حدث للسفينة بعد نجاتها من الملك الظالم بسبب خرقها ، أَعَادَ الخرقُ إلى الالتئام بقدرة الله تعالى كرامة للخضر؟ أم أنه رَتَقَ هذا الخرق بنفسه؟أم أن فى أصحابها من أصلحها؟أم أصلحها سواهم بأجر من الخضر لأنه هو الذى خرقها ؟ كل ذلك تركت الآية الحديث عنه لفطنة القارىء ، فإنه يعتقد أن ذلك المصلح لايمكن أن يترك ما أفسده دون إصلاح بأى طريق ، ولكنها أبرزت الحكمة فى خرقه إياها ، ليعلم موسى أن خرقها ليس لغرض الإغراق أو الإفساد ، بل لما أبداه من إنْجَائِهَا من الظَّلَمَةِ .

---

(١) وأسند الإرادة إلى نفسه بقوله : « فأردت أن أعيبها » لأن عيبه لها إفساد فى الظاهر ، فكان من الأدب أن لاينسبه إلى الله ، فلهذا لم يقل فأراد ربك ومثله ماسيأتى فى قتل الغلام « فأردنا أن يبدلهما » أى فأردت بقتل إياه أن يبدلهما الخ ، وكلاهما فى الحقيقة بأمر الله وإرادته لقوله تعالى : « ومافعلته عن أمرى » .

٨٠ـ (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) :

أى وأما الغلام الذى قَتَلْتُهُ أنا واعترَضْتَ ياموسى على قتله دون ذنب ظاهر لك فهو غلام شرير بطبيعته ، وكان أبواه مُؤْمِنَيْنِ صَالِحَينِ ، فتوقعتُ أن يغمرهما بمجاوزته الحدود الإلهية ، وكفره بالله تعالى ، فلهذا قتلته .

وفسر بعض العلماء إرهاقه لهما بالطغيان والكفر . بأن يحملهما حبه – لو بقى حيا – على متابعته ، وهذا التفسير مأثور عن ابن جبير .

ولكنّ الخوف من وقوع ذلك فى المستقبل لايبرر قتله للغلام . فقد لايقع ، فلهذا فسر بعض شراح البخارى الخشية هنا بالعلم ، أى فعلمنا من الله تعالى أنه لو بلغ لدعا أبويه إلى الكفر فيجيبانه ، ويدخلان معه فى دينه لفرط حبهما له ، أو علمنا أنه لو بلغ لأرهقهما طغيانا عليهما وكفرا بنعمتهما . بسبب عقوقه وسوء صنيعه ، فيلحقهما من ذلك شر وبلاء .

ومن العلماء مَنْ قال : إن الغلام كان شابا بالغا وكان شريرا كافرا ، ولا يمنع بلوغه من إطلاق لفظ الغلام عليه ، فإنه يستعمل لغة فيمن ظهر شَارِبُهُ ، وفى الكهل ، وفى الشخص من حين يولد إلى أن يصير شابا – كما جاء فى القاموس – ويستدل أصحاب هذا الرأى بما جاء فى بعض الآثار من أنه كان يفسد ويقطع الطريق ، ويقسم لأبويه أنه مافعل ، فيقسمان بقسمه ويحميانه ممن يطلبه ، ولعل هذا الرأى يؤيده ظاهر الآية التالية :

٨١ـ (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) :

أى فأردنا بقتله أن يرزقهما الله بدله خيرا منه ، طُهْرًا فى الدين والأخلاق . وأقرب رحمة منه بهما ، أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهما أُبدلا جَارِيَةً وَلَدَتْ نَبِيًّا ، وقال الثعلبى : إنها أدركت يونس عليه السلام – فتزوجها نبى من الأنبياء ، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة من الأمم . والله أعلم .

٨٢ـ (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) :

أى وأما الجدار الذى أقمتُه بدون أجر ، وكان وشيك الانقضاض ، فكان لغلامين مات أبوهما فأصبحا بعده يتيمين فى القرية التى طلبنا الطعام من أهلها ، فبخلوا به علينا ، وكان

تحت هذا الجدار كَنز لهما ، استحقاه عمن قبلهما ، كأَبيهما أَو جَدٍّ لهما أَو غير ذلك ، وكان أَبوهما صالحًا ، فرأيت من المروءة أَن أُقيمَ الجدار على الكنز حذرًا من انهيار المائل وظهور المكنوز تحته ، فيستولى عليه من لا يستحقه من الناس ، ولم يمنعنى من البر باليتيمين بخل أَهل هذه القرية علينا ، فإِن للإِحسان باليتامى أَجرًا عظيمًا .

وكان هذا الكنز من ذهب وفضة ، كما أَخرجه البخارى فى تاريخه ، والترمذى والحاكم وصححه من حديث أَبى الدرداء ، ولم تتعرض الآية الكريمة لبيان من هو الذى أَخفى الكنز تحت الجدار ، فإِن كان أَباهما أَوْ جَدَّهُمَا فهو حق لهما فى شرعنا وشرع من قبلنا بلا خلاف ، وإِن لم يعرف كَانِزُهُ فيحمل استحقاقهم له على أَنه كان حلالًا فى شرعهم ، واحتجَّ لهذا بما أَخرجه الطبرانى عن أَبى الدرداء . فى هذه الآية قال : « أُحِلَّتْ لهمُ الْكُنُوزُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْغنَائِمُ . وَأُحِلَّتْ لَنَا الْغَنَائِمُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْنَا الْكُنُوزُ » .

وقيل : إِنَّ الكنز لم يكن ذهبا ولا فضة بل كان صُحُفَ عِلْمٍ ، فقد أَخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أَنه قال : ما كان ذهبا ولا فضة ، ولكن كان صحف علم . وروى ذلك عن ابن جبير أَيضا ، وقيل : إِنه لوح من ذهب ، فقد أَخرج ابن مردويه من حديث على - كرم الله وجهه - مرفوعا والبزار عن أَبى ذر كذلك ، والخرائطى عن ابن عباس موقوفا ، أَنه كان لوحًا من ذهب مكتوبا فيه « عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأَهلها كيف يطمئن إِليها ، لا إِله إِلَّا الله محمد رسول الله » والله أَعلم بصحة ذلك .

ثم بين الخضر عليه السلام أَنه كان يتلقى الأَمر فيما يفعله من الله تعالى فقال :

(فَأَرَادَ[1] رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) :

---

(١) إسناد الإرادة هنا إلى الله لأنه إنعام محض ، فناسب إسناده إليه تعالى بخلاف ما مر فى السفينة والغلام فقد كان إفسادا فى الظاهر ، فلهذا أسنده الخضر إلى نفسه كما مر بيانه بالهامش ، وإن كان الكل بأمر الله .

أى فأراد مولاك ومربيك ياموسى أن يبلغ اليتيمان كمال قوتهما فى الرأى والبدن ، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ، فأمرنى بإقامته ، ولولا أننى أقمته لانقض وبرز الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه والانتفاع به ، وليس الذى فعلته من الأُمور التى شاهدتَها يا موسى ناشئًا عن اجتهادى ورأيى ، بل بوحى من ربك وربى ، ذلك الذى شرحته لك من أسرار تلك الأَحداث هو مآل وعاقبة الأُمور التى لم تستطع الصبر عليها ، حتى أبينها لك فى حينها .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(وَيَسْأَلُونَكَ) : السائلون قريش بتلقين اليهود ، أو اليهود أنفسهم .

(عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ) : صفة ملك صالح عَمَّ ملكهُ معظم أنحاء الأَرض ، وسيأْتى بيان السبب فى وصفه بذى القرنين .

(مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) : التمكين فيها بمعنى الإقدار عليها ، يقال : مَكَّنَهُ أى جعله قادرًا ، ومكن له أى جعل له قدرة . (سَبَبًا) : أى وسيلة وطريقة .

(فَأَتْبَعَ) : أى فاتَّبع فَهُمَا بمعنى واحد هنا . (فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ) : أى فى عين ذات حمأة ، وهى الطين الأسود ـ وذلك فى رأى العين ـ وسيأتى شرح ذلك باستفاضة .

التفسير

٨٣ـ (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) :

ذكر الله قبل هذه القصة ما حدث بين موسى والخضر ، وعقبها بذكر قصة ذى القرنين ليكونا آية على نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن القصتين لا يعلمهما سوى أهل الكتاب ، فى حين أنه صلى الله عليه وسلم لاسبيل له إلى علمهما إلَّا بقراءة كتبهم ، أو بتعلمها منهم ، ولاسبيل له إلى قراءتها ، لأنه أمى ، « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » . كما أنه لاسبيل له إلى تعلمها منهم ، لأنهم لا يوجدون بمكة ، ولم يكن له اتصال بهم ، ولهذا كانوا يَسْأَلُونَه عن تلك الغيبيات ، إما بتحريض قريش على سؤاله ، وإما بسؤالهم إياه بأنفسهم ، وأكثر الآثار تدل على أن السؤال حصل منهم قبل نزول هذه الآيات ، والتعبير بالمضارع (وَيَسْأَلُونَكَ) استحضار للصورة الماضية لغرابة سؤالهم إياه على سبيل الامتحان ، مع ما يشاهدونه عليه من الصدق والأمانة ، وما أيده الله به من الآيات البينات .

وذو القرنين ملِك صالح مكن الله له فى المشارق والمغارب ، كما سيتضح من تفاصيل قصته إن شاء الله .

وقد اختلف فى شخصه ، فقيل هو الإسكندر المقدونى ـ وهو رأى معظم المفسرين ، قال النيسابورى : أَصَحُّ الأقوال فيه أنه هو الإسكندر بن فيلقوس الرومى الذى ملك الدنيا بأسرها ، إذ لو كان غيره لا نتشر خبره ولم يخف مكانه .

وقال الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك الدنيا أو ما يقرب منها وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن سوى الإسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين

هو الإسكندر ، ثم قال وفيه إشكال ، فإنه كان تلميذاً لأرسطاليس الفيلسوف ،وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق ، وهذا مما لا سبيل إليه ، وأجاب الرازى عن هذا الاعتراض بما خلاصته أنه ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منه ما حسن ، وترك منه مالم يحسن .

ويقول الآلوسى فى تأييد هذا الفهم : إن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له إجلالا وتعظيماً ، فقال لهم : لا يجوز السجود لغير الله - كما نقله الشهر ستانى - ويلاحظ أن الإسكندر كان موجوداً قبل مبعث عيسى - عليه السلام- بثلثمائة سنة كما نقله الآلوسى عن بعض المؤرخين .

وهناك من قال : إنه رجل يمانى ملك الأرض كلها . فقد ذكر أبو الريحان المنجم فى كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) : أن ذا القرنين هو أبو كرب ابن عمير بن امرىء القيس ابن أفريقش[1] وهو الذى افتخر به تُبّع اليمانى فى قوله :

قد كان ذو القرنين جدى مسلماً[2] ملكاً علا فى الأرض غير مقيد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مآب[3] الشمس عند غروبها فى عين ذِى خُلَبٍ[4] وثأطة[5] حَرْمَدِ

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نواس وذى يزن ، واختار هذا القول (كاتب حلبى) وذكر أنه كان فى عصر إبراهيم عليه السلام ، وأنه اجتمع معه بمكة وتعانقا .

وهناك من يرى أن ذا القرنين هو غورش الفارسى ، ويسميه اليهود (كورش) ويسميه اليونانيون (سائرس) وإطلاق ذى القرنين عليه عند أصحاب هذا الرأى ناشئ من رؤيا رآها النبى دانيال فى منامه ، خلاصتها أن كبشاً كان واقفاً على شاطىء

(١) أفريقش جد أبى كرب ، استولى على المغرب ، وسميت أفريقيا باسمه ، ذكره الشيخ الطنطاوى جوهرى فى تفسيره .

(٢) يريد من كونه مسلما أنه مؤمن بربه مستسلم له .

(٣) مآب الشمس رجوعها .

(٤) أى عين ماء ذى طين أسود .

(٥) الثأطة : الحمأة وهى الطين الأسود وكذا الحرمد.

النهر له قرنان ، وهو ينطح بهما شرقاً وغرباً وجنوباً ، ولا قِبَلَ لحيوان بالوقوف أمامه ، وذكر سفر دانيال المذكور أن المَلَكَ ظهر له وشرح رؤياه قائلا : إن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد مملكتى (ميديا – وفارى)[1] وأن يحكمها ملك قوى لاتقدر دولة على مواجهته ، وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك (غورش) ملك الفرس المذكور ، فوحد (ميديا وفارى) وأنشأ منهما سلطنةً عظيمة ، وهاجم بابل واستولى عليها ، وجاء عنه فى سفر (أشعياء) ما خلاصته أن الله أخذ بيده اليمنى ليتم مرضاته وليجعل الأمم فى حوزته ، وينزع القوة من سواعد الملوك ، ويفتح له الأبواب تلو الأبواب ، ويمنحه الخزائن المدفونة[2] . وتسميته ذا القرنين على أنه الإسكندر المقدونى أو أبو كرب اليمنى ، لأنه بلغ ناصيتى مشرق الشمس ومغربها ، مأخوذ من قَرْنِ الشمس بمعنى ناحيتها وقيل : كانت له ضفيرتان من شعر فنسب إليهما – ذكره الثعلبى وغيره – والضفائر قرون الرأس عند العرب ، والوجه الأول فى علة التسمية أولى بالقبول ، فإن وَصْفَ ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر لا يصلح أن يكون علامة مميزة ، لأن إرسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعاً .

وبعد أن حكينا أظهر الأقوال فى شخصيته نقول : إن شخصيته ليست من العقائد ، وإنما ذكرت قصته للوعظ والإرشاد فليكن هو الإسكندر المقدونى أو رجلا حميرياً من اليمن ، أو ملكاً فارسياً فالقرآن لم يأتنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين أو الفارسيين فإن القرآن أعظم من ذلك كله ، ولكنهم لما سألوه صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، أجابهم بما يجمع بين إجمال المطلوب لهم ، والدلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم والعبرة ، حيث أخبرهم بما لا يعلمه سوى أهل الكتاب ، وبين أن الملك الصالح العالم يؤيده الله تعالى ويُمَكِّنُ له فى أرضه .

---

(١) انظر الإصحاح الثامن من سفر دانيال .

(٢) أشعيا إصحاح – ٤٥ – وقد جاء فى هذا الإصحاح أنه يعيد أسارى وسبايابنى إسرائيل إلى فلسطين ، وكان غورش (كورش) معرفا عند اليهود بذى القرنين ، تبعا لرؤيا التى دانيال المذكورة ، ولأنه كان له فى عصره تمثال من الحجر بقدر القامة ، وعلى رأسه قرنان مصداقا لهذه الرؤيا ، وكانوا يعرفون هذا عن كتبهم وأجدادهم ، وقد عثر على هذا التمثال فى إيران فى القرن التاسع عشر ، فلعل اليهود حين سألوا الرسول عن ذى القرنين ، كانوا يقصدون (كورش) المذكور ، لأنه هو الذى جاء ذكره بهذا العنوان فى كتبهم .

والمعنى الإجمالى : ويسألك السائلون من قريش بتحريض اليهود ، أو اليهود أنفسهم يسألونك عن صاحب القرنين الذى جَاب الأَرْضَ كلها ، قل أيها الرسول مجيبا لهم : سأقرأ عليكم من قصته نبأً مذكورًا ، أقرؤه على سبيل التلاوة من وحى الله تعالى الذى أوحاه إلىَّ جلا وعلا .

٨٤ ، ٨٥ – (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا) :

أجمل الله قصته فى الآية الكريمة الأُولى ، تمهيدًا لتفصيلها فى الآيات المقبلة ، ومعنى الآية : إنا جعلنا لهُ مُكنَةً وقدرة على التصرف فى الأرض ، وأعطيناه من أجل كل شىء أراده فيها سبَباً ووسيلة توصله إليها ، فلا يعوقه عن مراده عائق ،ومن هذه الأسباب سعة العلم وحسن التدبير ، والحكمة فى التصرف ، وتدريب الجنود ، واختيار القواد ، والعتاد الحربى ، فأراد التوجه إلى ناحية مغرب الشمس (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) : أتبع واتَّبع بمعنى واحد أى اتبع طريقاً وأسلوباً من شأنه إنجاح غزوه للأقطار الغربية .

وقد أشارت الآية الكريمة « فَأَتْبَعَ سَبَبًا » إلى أن معالى الأُمور لا تنال إلا باستعمال الأَسباب الموصلة إليها ، وأن المجد لا يناله القاعدون الخاملون .

٨٦ – (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)[1] :

أى اتبع الطريق والسبب الموصل إلى مقصده ، حتى إذا بلغ فى فتوحاته منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس ، ووقف عند حافة المحيط ، وجد الشمس – كما أدركها بصره – تغرب فى عين ذات حمأة ، والحمأة الطين الأسود .

وقرئ « فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ » وبها قرأ معاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ولا منافاة بين القراءتين ، فإنه لما بلغ حافة اليابسة ، وقف ينظر إلى الشمس عند غروبها ، فرآها فى نظره كأنما تغرب فى عين متقدة نارية ، بسبب قرص الشمس الشديد الحمرة ، الذى يبدو كأنه وقدة من النار جعلت مكان اختفائها فى نظره ، كأنما هو عين حامية – وكما يتصورها الناظر تغرب فى عين حامية ،يتصورها تغرب فى عين ذات طين أسود ، فإنها لما غابت تحت الماء ، أصبح مكان اختفائها فيه مظلماً باهتاً بعد أن كان متقداً .

(١) صفة مأخوذة من حمئت البئر إذا كثرت حمأتها – أى طينها الأسود .

ولما كان كلا الأمرين ضرباً من الخيال ، ناشئاً عن خداع النظر ، فلهذا قال تعالى :

« وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أو « فِى عَيْنٍ حَامِيَةٍ » على القراءتين ، أى هذا الذى رآه أمر ناشئ فى وجدانه وخياله ، وليس من الحقائق الواقعة ، فما أجمل تعبير القرآن بقوله « وجدها » وما أحراه بالإجلال والاعتبار .

وكما يراها الناظر عند غروبها تغرب فى عين ماء حمئة أو حامية إذا كان على شاطئ المحيط فإنه يراها تشرق خارجة من اليابسة ، وتغرب داخلة فيها إذا كان واقفاً على متسع فسيح من أرضها ، والحقيقة أن الشمس لا تغرب فى الماء ولا فى اليابسة عند الغروب ، ولا تشرق منهما عند الشروق فالشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، ولا تختفى عن مدارها ، والأرض تدور تحت أشعتها فتعمُّ الشمسُ نصفهَا بضوئها ، لأنها على شكل كرة ، فيكون النهار فى القسم الذى استضاء بنورها والليل فى القسم الآخر .

وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها ، فحل فيه الليل محل النهار ، وظهرت أشعتها فى بعض آخرَ تَكَشَّفَ للشمس ، فَحَلَّ فيه النهارُ مَحَل الليل .

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض هو البروز الكروى للأرض ، فهو الذى يمنع أشعة الشمس عما انخفض منها بسبب حركتها الدائرية ، ولو كانت مبسوطة وغير دائرة لما غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهارًا دائماً ، وأما ماورد فى القرآن من أن الأرض مبسوطة فمحمول على ما هو فى رأى العين ، كما فى قوله تعالى فى سورة نوح : « وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا » .

(وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً) :

أى ووجد ذوالقرنين فى طرف الأرض من ناحية المغرب ، وجد قوما عند العين التى تخيلها وتخيل أن الشمس تغرب فيها ، وكان هؤلاء القوم مشركين ، كما هو شأن الناس عند غياب المرسلين عنهم ، قال الله له على سبيل التخيير : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ هؤلاء القوم بالقتل إن أبوا الإيمان وأصروا على الشرك ، وإما أن تتخذ فيهم أمرًا ذا حسن ، بالمصابرة والمطاولة لعلهم يؤمنون ويَرْشُدُون ، وكان تخيير الله لذى القرنين على النحو السابق إما على لسان نبي كان موجودًا فى هذا الزمان ، وإما على سبيل الإلهام .

٨٧ـ (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا) :

أى قال هذا الرجل الحكيم بعد أن خيره الله فى شأن الكفار من أهل المغرب على النحو الذى بيناه فى شرح الآية السابقة ـ قال ـ : هؤلاء الناس سوف يكونون بعد دعوتهم إلى الحق قسمين : ظالمين ببقائهم على الكفر وإصرارهم عليه ، ومؤمنين تائبين من كفرهم ، فأما من ظلم نفسه ببقائه على الكفر والعصيان ، فسوف نعذبه بالقتل ، ثم يعيده الله بالبعث فيرده إلى حسابه وجزائه فيعذبه على كفره وعصيانه عذابا منكرا فظيعا .

ثم بين مآل المؤمنين التائبين كما حكاه الله عنه بقوله :

٨٨ـ (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَى وَسَنقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) :

أى وأما من آمن بالله وعمل صالحا موافقا لما شرعه الله على لسان نبي ذلك العصر ، فله المثوبة الحسنى فى الدارين ، جزاءً له على إيمانه وصالح عمله ، وسنقول له مما نأمر به موافقًا لشرع الله ـ سنقول له ـ قولا ذا يسر وسهولة فى مختلف التكاليف ، فإن الله لا يكلف نفسًا إلَّا وسعها .

٨٩ـ (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اتَّبعَ طريقًا مُوَصِّلا إلى المشرق ، ليرجع فيه بعد غزوه المغرب .

٩٠ـ (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا) :

حتى إذا بلغ ذو القرنين الإقليم الذى تطلع الشمس عليه أولا فى ناحية المشرق على حافة المحيط ، وجدها تطلع على قوم بدائيين فطريين لم يرتقوا صناعيًا ، حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابًا تسترهم وتحميهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تُؤويهم من حرارتها ، وقد يكون ذلك فى المنطقة التى يمكث فيها النهار أيامًا متتالية فى فصل ، ثم يمكث الليل أيامًا متتاليةً كذلك فى فصل آخر ، وأنه وصل إليها وقتما كان الزمن نهارًا دون ليل ، والشمس طالعة فوقهم دائمًا ، وليس لهم وقتئذ ليل يسترهم منها ، وأن ذلك هو معنى قوله سبحانه : « لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » وقد أجمل الله كمال استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة ، وَعَظَّمَ أمره وفَخَّمه بقوله :

٩١ ـ (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) :

أى كان الأمر فى الواقع مثل هذا الذى حكيناه عن ذى القرنين فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علمًا بما عنده من الوسائل التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربًا ومشرقًا .

٩٢ ـ (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اقتفى طريقًا ثالثًا يصل منه إلى حيث يوجد يأجوج ومأجوج وجيرانهم الذين يتعرضون لفسادهم .

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(بَيْنَ السَّدَّيْنِ) : بين الجبلين ، والسد الجبل والحاجز ، والمراد هنا الأول كما تقدم .
(من دُونِهِمَا) : أى قريبًا منهما ، والأصل فى استعمال لفظ. (دُونَ) أن يكون بمعنى تحت وبمعنى فوق ، وبمعنى أمام وبمعنى خلف ، أى أنه يستعمل فى الشيء ومقابله ، كما يستعمل بمعنى غير ، انظر القاموس . (لَا يَكَادُونَ) : لا يقربون. (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) : اسمان لقبيلتين وقد منع صرفهما. (أى تنوينهما) للعلَمية والعجمة . (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) : ما هنا بمعنى الذى و (مَكَّنِّى) أصله مكننى بنونين ، فأُدغمت الأُولى فى الثانية أى ما جعلنى الله فيه مَكينًا وعليه قادرًا خيرٌ من خَرْجِكُم ، (رَدْمًا) : أى حاجزًا حصينًا وسدًّا منيعًا بعضه فوق بعض من قولهم سحاب مُرَدَّم. أى متكاثف بعضه فوق بعض . (زُبَرَ الْحَدِيدِ) : قطع الحديد ، جمع زبرة وهى القطعة . (الصَّدَفَيْنِ) : جانبى الجبلين ، ومفرده الصدف وهو الجبل ، ونقل فى الكشف أنه لا يقال للمنفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة ، كالزوج وأمثاله. (قِطْرًا) : القطر هو النحاس المذاب وهو قول الأكثرين ، وقيل الرصاص أو الحديد المذاب . (أن يَظْهَرُوهُ) : أن يعلوه ويرتقوا فوقه . (نَقْبًا) : النقب الثقب والخرق .

(دَكَّآءَ) : أى أرضًا مستوية. (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ) : أى جعلناهم يضطربون ويختلطون.

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) : الصور آلةٌ تشبه القرن ينفخ فيها ،وتسمى البوق أيضًا ، وسيأتى فى التفسير بيان آراء العلماء فى ذلك بمشيئة الله .

التفسير

٩٣ - (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) :

لما أتم ذو القرنين رحلته إلى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه ، اتخذ طريقا ثالثا ليخضع لسلطانه قوما آخرين لم يدينوا له بعد ، حتى إذا وصل فى سيره إلى منطقة تقع بين جبلين معينين ، وجد قريباً منهما قوما لا يقربون من أن يفهموا ما يقال لهم منه أو من أتباعه لقلة فطنتهم ، فإنهم لو كانوا أذكياء لفهموا بعض ما يقال لهم بالقرائن .

ولعلهم كانوا يتفاهمون معهم بالإشارة ليعلموا ما يراد منهم أو ما يجابون به على أسئلتهم وستحدث عن مكان السدين وعن يأجوج ومأجوج حديثا مستفيضا بعد الفراغ من شرح الآيات الكريمة التى أجملت الحديث عنهما .

٩٤ - (قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) :

أى قال القوم الذين هم دون السّدين ، يشكون حالهم لذى القرنين ، لما عَلموه من قوة سلطانه وعظيم همته ، بما سمعوه من أخبار رحلته - قالوا لذى القرنين - يا صاحب القرنين الذى دان له المشرق والمغرب ، إن قبيلتى يأجوج ومأجوج القيمتين خلف السّدين ، مفسدون فى الأرض التى نحن فيها ، كما أنهم مفسدون فى غيرها ، ونحن لا نقدر على دفعهم عن بلادنا ، فهل نجعل لك عطاء ومالا على أن تجعل بيننا وبين هؤلاء المفسدين حاجزا بين هذين الجبلين يمنعهم من العودة إلى أرضنا والْعَيْثِ فيها فسادا ، وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجًا» بألف بعد الراء وكلاهما بمعنى واحد كالنول والنوال ، وقال ابن الأعرابى : الخرج على الرؤوس والخراج على الأرض ، ولهذا يقال : أَدِّ خَرْجَ رَأْسِكَ وَأَدِّ خَرَاجَ أَرْضِكَ ، وقيل : الْخَرْجُ ما تبرعت به والخراج مالزمك .

٩٥ - (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً) :

قال ذو القرنين ردا على ما عرضوه من العطاء فى مقابل إقامته السد بينهم وبين يأجوج - قال لهم - ما مكنى فيه ربى وجعلنى فيه مكينا من الملك والمال والعلم وسائر الأسباب خير مِمَّا تريدون بذله لى ، فلا حاجة بى إلى أموالكم ، فأعينونى على بناء السد الذى تريدونه بما أقوى به على تحقيقه . من العمال وآلات البناء والوقود وقطع الحديد والنحاس ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى إقامته حتى يساوى الجبلين ،ويكون شديد القوة بحيث لا يقدرون على صعوده ولا على اختراقه ، فإن فعلتم أجعل بينكم وبينهم ردمًا أى حاجزا حصينا وحجابا متينا .

واعلم أن الردم فى اللغة أقوى من مطلق السد ، مأخوذ من قولهم سحاب مُرَدَّمٌ ، أى متكاثف بعضه فوق بعض ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عن الردم : (هو كأشدّ الحجاب) وعلى هذا يكون قد وعدهم بتحقيق مرادهم فوق ما يتخيلون وهذا هو ما يليق بملك عظيم مثله ، ثم فصل لهم بعض مطلوبه من القوة التى يعينونه بها فقال :

٩٦ - (آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا) :

أى أعطونى قطع الحديد ، فأتوه بها ، فجعل يضع بعضها على بعض بطريقة تقتضى التماسك والارتفاع بالبناء ، حتى إذا ساوى ذو القرنين ما بين جانبى الجبلين بما بناه من السد قال لعماله : انفخوا بالكيران فى الوقود الموضوع بين قطع الحديد بعد إشعال النار فيه ، ليصبح الحديد مثل النار ، فيلتصق بعضه ببعض ، ففعل العمال ما أمرهم به .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) :

هذه العبارة مترتبة على كلام مقدر مفهوم من المقام ، فكأنه قيل : ففعل العمال ماأمرهم به ذو القرنين من النفخ فى الوقود المشتعل بين قطع الحديد ،حتى إذا جعل السد يشبه النار فى شكله وفى حرارته قال لعماله الذين يقومون بإذابة القطر وهوالنحاس أوالرصاص أو الحديد- قال لهم - أحضروا القطر الذى صهرتموه وأذبتموه لأفرغه على السد ، فأحضروه له فأفرغه عليه فسدّت به الثغرات التى كانت بين قطع الحديد بعد أن تم احتراق الوقود الذى بينهما ، والتصق بعضها ببعض أشد التصاق .

٩٧ - (فَمَا اسْطَاعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) :

أى فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه أو ينقبوه ،فما استطاعوا أن يعلوا ظهره ويرتقوا فوقه لشدة ارتفاعه وملاسته ، وما استطاعوا له خرقا لصلابته وغلظه ،قيل : كان ارتفاعه مائتى متر ، وكان غلظه خمسين ذراعا ، والله أعلم بصحة ذلك .

وفى هذه الآية تساؤلات نذكرها ونجيب عليها فيما يلى ، ونسأل الله التوفيق :

س ١ : لماذا قال ذو القرنين لأهل ما بين السدّين : « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » مع أنه امتنع عن أخذ المال منهم ، وقال : « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » ؟ .

والجواب : أن امتناعه عن أخذ المال لا يمنع من طلب عمال البناء والأدوات وقطع الحديد ليتقوى بذلك على تحقيق مرادهم على أن يدفع الأجر للعمال وثمن الحديد من ماله ،على أن السد لما كان لمصلحتهم ، فإن تبرعهم بالقوى العاملة ، لا يعتبر عطاء أو أجرًا على بنائه كما أن زبر الحديد قد تكون من منجم قريب من السد ، فإحضارهم إياها ، لا ينافى رفضه أجراً منهم . .

س ٢ : كيف يطلب من عماله أن ينفخوا على السور بعد أن بناه بقطع الحديد ، مع أن هذا النفخ لايصهر الحديد دون أن يكون بين قطعه وقود مشتعل . ؟ . .

والجواب : أن هذا النوع هو من الاختصار القرآنى المتروك فهمه لفطنة القارئ ، وهو من الصور البلاغية للقرآن الكريم ، ولا شك أنه أمرهم بوضع الوقود وإشعاله قبل أمرهم بالنفخ فيه ، وأن الأمر بالنفخ قرينةٌ على ذلك .

س ٣ : لماذا أسند ذو القرنين العمل فى السد لنفسه بقوله : « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » كما حكى الله عنه أنه ساوى بين الصدفين وجعله نارا ، مع أن كل ذلك تم بمباشرة مهندسيه وعماله . . ؟

والجواب : أنه لما كان ذلك يتم بأمره وإرشاده أسنده إلى نفسه على سبيل المجاز .

س ٤ : كيف يستطيع العمال أن ينفخوا فى السور قريباً منه دون أن يحترقوا بناره ، وكيف يفرغون عليه النحاس المذاب مع حرارته الشديدة وناره المتقدة ، وارتفاعه العظيم وثخانته البالغة خمسين ذراعا على ما قيل ؟

والجواب :أنه لابد أن يكون ذو القرنين قد وصل إلى حل لهذه المشكلات ، بحيث يمكنه تحقيق بنائه على النحو الذى تحدث به القرآن العظيم عنه ، دون إضرار بأحد العاملين فيه ، وكما أن العلم فى عصرنا حل مشكلات كثيرة ، فالعلم والحضارة والحكمة عند هؤلاء القدماء بلغت الذروة ، فلابد أنهم استعملوا آلات وطرقا علمية لم يصل بعد أحد إلى معرفتها ولاتكاد العقول تصدقها ، مالم تعرف ما كان عليه هؤلاء العظماء ، من العلم والحكمة والإبداع ، وما معجزة بناء الأهرام عنا ببعيدة عن العيون والأبصار ، وكم لله فى خلقه من آيات وعظات .

٩٨ - ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ :

بعد أن فرغ ذو القرنين من بناء السد وإحكامه بحيث يمنع يأجوج ومأجوج من الخروج من ورائه ليفسدوا فى الأرض ، قال مشيرا إلى السد : هذا أثر رحمة عظيمة من ربى بعباده ، حيث أقدرنى على بنائه وإحكامه وحمى به الناس من غزوات أولئك المفسدين المخربين ، وما أنا إلا منفذ لمشيئة ربى ورحمته بعباده ، ولو لا ذلك لما استطعت بناءه ، فإذا جاء موعد ربى بخروج يأجوج ومأجوج من محبسهم جعل هذا السد أرضا دكاء أى مستوية ، وكان وعد ربى بخروجهم حقا ثابتا لا خلف فيه ، وكذا كل مواعيده جل وعلا ، وقد يقول قائل : من أين علم ذو القرنين أن هذا السّد سَيُدَكُّ وينهار ، وأن الله وعد بذلك ، وأنهم بعد دكه سيخرجون مع أنه ليس بنبى ؟

والجواب : أنه ربما علم ذلك من نبى كان فى وقته ، أو يكون ذلك عن اجتهاد ، أو قراءة فى كتاب نبى سبقه ، وفى ذلك يقول الآلوسى : وفى كتاب حزقيال عليه السلام الإخبار بمجيئهم فى آخر الزمان ، من آخر الجربياء فى أمم كثيرة لا يحصيهم إلّا الله تعالى ، وإفسادهم فى الأرض ، وقصدهم بيت المقدس ، وهلاكهم عن آخرهم فى بريّته بأنواع من العذاب ، قال الآلوسى : وحزقيال عليه السلام قبل الإسكندر ، فإذا كان هو ذا القرنين ، فيمكن أن يكون وقف عليه ، فأفاده علمًا بما ذكر . والله تعالى أعلم : انتهى كلام الآلوسى .

وبعد أن انتهى الحديث عن فتوحات ذى القرنين وإصلاحاته آن الأوان لذكر نبذة عن يأجوج ومأجوج ، وعن مكانهم ومكان السد ، وهل هو باق حتى الآن ، أم أن الله دكه دكًّا ، وخرجت يأجوج ومأجوج من ورائه ليفسدوا فى الأرض ، وإليك البيان فيما يلى :

ياجوج وماجوج

هما قبيلتان من البشر ، وقد أحيطت قصتهم ببعض الخرافات ، لا نرى موضعًا لذكرها فى تفسيرنا هذا ، ويقول الناسبون : إنهم من ذرية يافث بن نوح عليه السلام ولعل منشأ قولهم هذا ما جاء فى صدر الإصحاح العاشر من سفر التكوين من أن نوحًا عليه السلام ولد له ثلاثة أولاد ، سام وحام ويافث ، وأنه ولد ليافث جوقر ومأجوج وماداى . . . الخ .

وفى هذا المعنى ورد حديث مرفوع جاء فيه (ولد لنوح سام وحام ويافث ،فولد لسام العرب وفارس والروم وولد لحام القبط والبربر والسودان ، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة) وضعفه علماء الحديث ، والله أعلم ، وهما اسمان أعجميان ، أو عربيان مأخوذان من أجّ الظليم إذا أسرع ، أو من أجيج النار ، وهو ضوءها وشررها ، وهذا المأخذ يشير إلى شرهم وفسادهم ، وأنهم مثل النار ولا جيرة لهم ، كما أن المأخذ الأول يشير إلى سرعتهم فى شن الغارات على جيرانهم ، والعودة بغنائمهم إلى حيث يعيشون وراء الجبلين اللذين أقيم السد بينهما ، وهذان الجبلان كما يقول بعض الباحثين : (بين سمرقند والهند) وعلى هذا يكون المراد من يأجوج ومأجوج المغول والتتار .

وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غرباً إلى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت فى هضبات آسيا الوسطى شمال الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين من خطوط العرض الشمالية ، وبذلك تبلغ بلادهم فى العرض ثلاثًا وعشرين درجة .(١)

وهذه الأمم عرفت فى التاريخ بإغارتها على الأمم المجاورة من آن لآخر ، كما عرف عنهم تجاوز إفسادهم إلى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى إلى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التى بعث فيها الأنبياء ، وكانوا يحذرون منهم أقوامهم ، وسنتحدث عن جرائمهم فى عهد الإسلام بمشيئة الله .

اسم السد ومكانه

واسم السدّ الذى بناه ذو القرنين بين الجبلين المذكورين (سد باب الحديد) وراء جيحون فى عمالة بلخ ، بقرب مدينة ترمذ .

وقد دك هذا السد كما وعد الله تعالى ، وإليه يشير قوله تعالى : « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » .

(١) راجع ج ٩ من تفسير الجواهر ص ١٩٩ وقد نقله مؤلفه الشيخ طنطاوى جوهرى عن فاكهة الخلفاء ، وابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ورسائل إخوان الصفا .

وقد اجتاز هذا السد تيمورلنك بجيشه ، ومر به (شاه روح) وكان فى خدمته الألمانى (سيلدبرجر) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلافيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك قشتالة .[١]

آراء اخرى فى مواطنهم

ويرى بعض المؤرخين أنهم يسكنون قريبا من خط عرض (٩٠) تسعين من جهة الشمال ، وأنه هو المراد بآخر الجربياء فى كتاب النبى حزقيال ، وأن جبليهم هما جبلا (أرمينية وأذربيجان) وأن سَدَّ ذى القرنين هو سد (باب الأبواب) المشهور ، وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والترك ، وأن الذى بنى السد هو ملك الفرس غورش الذى تقدم ذكره ، لأنه هو الذى بنى سد (باب الأبواب) — وهذا يخالف ما عليه أكثر المورخين من أن الذى بنى سد يأجوج ومأجوج هو الإسكندر المقدونى ، وقد بناه فى آسيا الوسطى شمال الصين ، واسمه « باب الحديد » .

أما سد (باب الأبواب) فقد بناه ملك الفرس بناحية أرمينية ، لأغراض تتعلق بأمن وسلامة أهل هذه المنطقة ممن كانوا يغيرون عليها من الهنغوليين ، فهم الذين حملوا شعب الخزر على الهجرة إلى شرق أوروبا ، بسبب كثرة غاراتهم عليهم ، وهناك اندمجوا فيهم ، والهنغوليون غير يأجوج ومأجوج ، الذين كانوا يسكنون بآسيا الوسطى شمال الصين وعلى أى حال فالسدّ الذى تحدث عنه القرآن وبناه ذوالقرنين حقيقة واقعة سواء كان (سد باب الحديد) شمال الصين أم كان (سد باب الأبواب) بناحية أرمينية ، وكلاهما مصدق لما جاء به القرآن الكريم ، سواء بناه الإسكندر شمال الصين ، أم بناه الملك الفارسى بناحية أرمينية ، وإطلاق صفة ذى القرنين على هذا أو ذاك ، تقدم بيانه فى تفسير قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا »

---

(١) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

جرائمهم فى عهد الاسلام

قلنا إن سد يأجوج ومأجوج تخرب مصداقا لوعده تعالى : « فإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ » الآية ، وقد خرجوا من محبسهم فى غزوات تخريبية ، ومنها ما حدث فى أوائل القرن السابع الهجرى بقيادة ملكهم (جنكيزخان) حيث أغاروا على بلاد المسلمين فأطاحوا بمملكة (قطب الدين السلجوقى) ملك التركستان والفرس ، وأخضعوا بلاد الهند ، وهلك الطاغية (جنكيزخان) بعد رجوعه من الهند ، وأغار ابن أخيه (هولاكو) بجنوده على مقر الخلافة ببغداد فى عهد الخليفة (المستعصم بالله) وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته بذيل حصان وأباحوا المدينة تسعة أيام سالت فيها الدماءُ أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى نهر دجلة ، ثم أذن الله بالنصر عليهم فى عهد الملك (سيف الدين قطز) بعد أن وصلوا فى غزواتهم المدمرة إلى الشام ، حيث جرد لهم جيشا عظيما من مصر والشام ، وحاربهم فى معركة فاصلة بعين جالوت ، وهزمهم شر هزيمة ، وأجلاهم ولم تقم لهم بعدها قائمة .

وفى شأنهم هذا روى البخارى بسنده عن زينب بنت جحش رضى الله عنها (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول : لا إله إلا الله . ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإِصْبَعَيْهِ الإبهام والتى تليها قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال نعم إذا كثر الخبث) .

وتعبيره صلى الله عليه وسلم عن الفتحة بالسد وتصويره إياها بتحليقه بإِصْبَعَيْه الإبهام والتى تليها ، كناية عن بداية صغيرة لشرهم ، ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى كما ذكرنا ــ والله تعالى أعلم . .

التفسير

٩٩ ــ (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) :

بعد أن حكى القرآن الكريم عن ذى القرنين أن هذا السد رحمة من ربه ، ذكر فى هذه الآية ما فعله الله تعالى بيأجوج ومأجوج بعد إقامة السد ؛ وظاهر النظم الكريم أن الضمير فى قوله تعالى : « بعضهم » عائد إلى يأجوج ومأجوج ، وعليه اقتصر الفخر الرازى ، واختاره صاحب البحر . والتَّرْكُ هنا بمعنى الجَعْل ، وهو من الأضداد .

والمعنى على هذا : وبعد تمام السد جعلنا يأجوج ومأجوج يموجُ بعضهم فى بعض ، أى يضطربون اضطراب موج البحر لما مُنِعُوا من الخروج والفساد فى الأرض بسبب السد ، ولا يزالون مائجين مضطربين ، حتى ينجز الله وعده الحق ، فَيَنْدَكُّ السد ويسوى بالأرض ، وحينئذ يخرجون مزدحمين فى البلاد ويهلكون الحرث والنسل .

وقيل : إن الضمير عائد إلى الخلائق من الإنس والجن . وعلى هذا الرأى يكون معنى الآية ما يلى :

وجعلنا بعض الخلائق يضطربون اضطراب أمواج البحر ، يختلط إنسهم بجنهم من شدة الفزع والهول عند قيام الساعة ، روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال الآلوسى : ولعل ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأولى .

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) : الصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى ، كما ثبت فى السنة وهو بوق عظيم جـدا ، جاء فى الآثار من وصفه ما يدهش العقول ، ولكنا نؤمن به ، ونكل حقيقته إلى من أحاط بكل شىء علماً ، وقد صَحَّ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبِينَهُ وأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ فَيَنْفُخ »[1] وهو ينفخ فيه نفختين : الأولى نفخة الصعق والأخرى نفخة البعث والقيام من القبور ، وهما المذكورتان فى قوله تعالى : « وَنُفِخ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ »[2] .

والمراد هنا النفخة الأخرى بدليل ما بعدها ، والضمير فى قوله تعالى : « فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » للخلائق كلها ومنهم يأجوج ومأجوج ـ أى عقب النفخة الأخرى فى الصور ، والقيام من القبور ، نجمع الخلائق كلها جمعاً عظيماً هائلا : أولهم وآخرهم ، إنسهم وجنهم ، مؤمنهم وكافرهم بعدما تفرقت أوصالهم ، وتمزقت أجسادهم ـ نجمعهم فى صعيد

---

(١) وذهب أبو عبيدة إلى أن الصور جمع صورة، وأيده بقراءة الحسن (الصور) بفتح الواو ، وعلى هذا يكون النفخ فى الصور كناية عن إحياء الخلائق ، لجمعهم وحسابهم وجزائهم .

(٢) الزمر ـ الآية : ٦٨

واحد للحساب والجزاء ، كما قال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »[1] ، وقال سبحانه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا »[2] .

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾) .

المفردات :

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ) : أظهرناها . (أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ) : أعينهم عليها غشاوة يمنعها من البصر (عَن ذِكْرِي) : عن الآيات التي تذكرهم بي .

التفسير

١٠٠ - (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا) :

هذا إخبار منه تبارك وتعالى ، عما يفعله بالكفار يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء .

والمعنى : وأبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين إظهارًا جلياً حيث يرونها ، ويسمعون لها تغيُّظًا وزفيرًا ، ويبصرون ما أعد لهم فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم ، وليعلموا أنهم مواقعوها لايجدون عنها مصرفاً .

١٠١ - (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي . . .) الآية .

وهذا بيان منه سبحانه لبعض أوصاف الكافرين الذين استحقوا بسببها هذا العذاب والنكال ، أي هؤلاء الكافرون بي كانت أعينهم - وهم في الدنيا - في غشاوة محيطة بها ، فتغافلوا وتعاموا عن النظر في آياتي المُنْبَثَّةِ في الأنفس والآفاق ، المؤدية إلى توحيدي وتمجيدي وذكري وطاعتي ، ويجوز أن يراد ذكره تعالى الذي أنزله على رسله ودعا إليه عباده .. وقوله

(١) الواقعة ، الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ (٢) الكهف ، من الآية : ٤٧

تعالى : « وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » . نفى لسمعهم آياته على أتم وجه وأبلغه ، والمراد أنهم مع تغافلهم وتعاميهم عن التدبر فى آياته تعالى ، كفاقدى السمع أصالة ، فهو تصوير لإعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم . بعد تعاميهم عن آياته المؤدية إلى ذكره وما ينبغى لجلال وجهه ـ والتعبير عن إعراضهم عن الذكر بأنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً ، يؤذن بان ذلك كان دأبهم الذى اعتادوه واستمروا عليه وقد أفادت الآية أنهم سدوا على أنفسهم منافذ العلم من السمع والبصر .

(أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(أَفَحَسِبَ) : الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، والحسبان بمعنى الظن . والفاء عاطفة على مقدر مناسب سيأتى فى التفسير . (أَوْلِيَآءَ) : أى معبودين أو أنصارًا .

(أَعْتَدْنَا) : أى أعددنا وهيأنا . (نُزُلاً) : أى شيئاً يقدم لهم ، كالذى يقدم للنزيل أو الضيف . وقيل النزل : موضع النزول ، ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى .

(ضَلَّ سَعْيُهُمْ) : أى ضاع عملهم وبطل عند الله عز وجل .

التفسير

١٠٢ – (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ....) الآية .

لما بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ضلال الكافرين وتغافلهم عن التدبر فى آياته الهادية إلى ذكره وطاعته – أنكر عليهم فى هذه الآية اتخاذهم بعض عباده آلهة يعبدونهم من دونه ، أو أنصارًا ينصرونهم ويخلصونهم من عذابه .

والمعنى : أجهل هؤلاء الذين كفروا بى فظنوا أن اتخاذهم بعض عبادى آلهة أو أنصارًا ينجيهم من عذابى ! كلا ، إنهم بظنهم هذا لفى ضلال مبين ، ولو كان أولياؤهم من الملائكة أو العباد المقربين ، ثم أكَّد سبحانه هذا الإنكار على الكافرين به فقال :

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) : أى إنا هيأنا لهؤلاء جهنم جزاء على عبادتهم لغيرنا واتخاذهم أولياء . وفى هذا ما فيه من التهكم بهم والتخطئة فى حسبانهم ذلك ، مع الإيماء إلى أن لهم من وراء جهنم ألواناً أخرى من العذاب[1] ، وليست جهنم إلا مقدمة له . وأما إذا كان النُّزل بمعنى المنزل أو المثوى ، فالمراد بيان انعكاس مقصودهم من النجاة إلى الهلاك .

١٠٣ – (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) :

قيل إن المراد بهؤلاء الأخسرين : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ولكن ظاهر الآية الكريمة أنَّها عامة فى كل من عبد الله على غير شريعته التى شرعها لعباده ، يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول ، ولكنه مخطئ وعمله مردود عليه .

أى قل أيها الرسول للمشركين خاصة وللكافرين عامة : هل أُخبركم بأشد الناس خسرانا لأعمالهم وحرماناً من ثوابها ؟ ! ثم فسرهم بقوله :

١٠٤ – (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) :

أى أن الأخسرين أعمالا من سائر الملل والنحل هم الذين أتعبوا أنفسهم فى أعمال يبغون بها ثواباً وفضلا ، فنالوا بها هلاكاً وخسرا ، كالذى اشترى سلعة يرجو بها ربحاً عظيماً ، فخاب

---

(١) فإن لفظ « النزل » يعبر به عما يقدم الضيف أول ماينزل من غير كلفة ، ويكون عادة مقدمة لما يقدم له بعد بعناية ، وقد عبر به هنا عما يقدم الكافرين أول نزولهم العقاب وهو جهنم ، فما ظنك بما يكون بعدها ؟

رجاؤه وخسر بها خسراناً مبيناً . وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كفرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إذا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً »[1] وقوله تعالى : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[2].ثم بين سبحانه ما ترتب على كفر أولئك الأخسرين أعمالا من الجزاء السيء على ما صنعوا فقال :

١٠٥ ـ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . .) الآية .

أى أولئك الضالون الخاسرون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون ، هم الذين جحدوا آيات ربهم ودلائله الداعية إلى توحيده وتمجيده ، وضموا إلى جحودهم آيات ربهم إنكارهم البعث فى اليوم الآخر وما يتبعه من الجزاء على الأعمال ، فمن ثَمّ حبطت أعمالهم وبطلت وإذًا : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً) : بل نزدرى بهم ونحتقرهم ، ولا نجعل لهم مقداراً ، لأنه لامقدار لأحد إلا بالعمل الصالح ، وأولئك مجردون من صالح الأعمال ، وقد روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِى الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيامَةِ لَا يَزِن عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَة ، وَقَالَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً » أو المعنى لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً لأنها قد حبطت وصارت هباءً منثورًا . وقوله تعالى :

١٠٦ ـ (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوٓا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُوًا) :

بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم ، إثْرَ بيان أعمالهم الْمُحْبَطَةِ بذلك الكفر ، أى ذلك جزاؤُهم الذى جزيناهم به بسبب كفرهم بى ، واتخاذهم رسلى وآياتى التى أَيَّدْتُهُمْ بها ـ هزوًا وسخرية ! فلم يكتفوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل ، بل ارتكبوا عظيمة أخرى مثلها ، وهى الاستهزاء بالمعجزات الباهرة التى أيدت بها رسلى عليهم السلام وبالصحف المنزلة عليهم .

---

(١) سورة النور ، من الآية : ٣٩ (٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(الْفِرْدَوْسِ) : أعلى درجات الجنة وأوسطها وأفضلها . وأصله فى اللغة : البستان الجامع لكل مافى البساتين . (حِوَلًا) : أى تحولا وانتقالا .

التفسير

١٠٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه ما أعده من العذاب للذين كفروا بآيات ربهم واستهزءوا برسله - ذكر جزاء الذين آمنوا به وبلقائه وعملوا الصالحات ، قال الآلوسى تبعاً لأبى السعود : هذا بيان - بطريق الوعد - لمـآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة ، إثر بيان مآل الكفرة بطريق الوعيد ، أى : إن الذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه سبحانه ، وعملوا الأعمال الصالحات ، كانت لهم فيما سبق من حُكْمِهِ تعالى ووعده جنات الفردوس أعلى الجنات منزلة وأرفعها درجة ، أخرج البخارى ومسلم وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا سَأَلْتُمُ الله تعالى فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ : فإنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَن ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) . وفى التعبير بقوله : « كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » . إيماء إلى أن أثر الرحمة ، يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية ، بخلاف مامر من جَعْل جهنم للكافرين نُزُلًا ، فإنه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم . انظر تفسير أبى السعود . .

١٠٨ ـ (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) :

أى مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدًا . قال ابن كثير : وفى قوله : « لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يَمَلُّهُ فأخبرأنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى . لا يختارون عن مقامهم ذلك تحولا ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلا . أ هـ .

(قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(مِدَادًا) : المداد فى الأصل : اسم لكل ما يُمَدُّ به الشيء ، واختص فى العرف بما تُمَد به الدواة من الحبر . (يَرْجُو) : يأمل أو يخاف .

(لِكَلِمَاتِ رَبِّى) : أى لكلماته الإبداعية والتشريعية والخبرية ، فى اللوح المحفوظ وفى القرآن الكريم ، وفى شئون الكون حاضره ومستقبله ودنياه وأخراه .

التفسير

١٠٩ ـ (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى) ... الآيـة .

سبب النزول :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن حُيَىَّ بن أخطب قال : فى كتابكم : « وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقرءون : « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ومراده الاعتراض بوقوع التناقض فى القرآن الكريم ، بناءً على أن الحكمة هى العلم فكيف يكون العلم فى القرآن شيئاً قليلا فى آية ، وخيرًا كثيرًا فى آية أُخرى ، وقد غفل هؤلاء اليهود ، عن أن الشيء الواحد قد يكون قليلا فى حالة ، وكثيرًا فى حالة أُخرى فالآية جواب عن اعتراضهم بالإشارة إلى أن القلة والكثرة من الأُمور الإضافية ، فيجوز أن يكون الشيءُ كثيرا فى نفسه ، وهو قليل بالنسبة إلى شيء آخر ، ولا شك أن التوراة ليست كل كلام الله تعالى ، بل هى بعض قليل منه ، ويكفى فى كتابتها مداد قليل ، أما كلامه تعالى الشامل للتوراة وغيرها من شئون الكون فكثير لا يكفى فى كتابته مداد البحر .

ومعنى الآية : قل لهم أيها الرسول : لو كان ماءُ البحر مدادًا للقلم الذى تكتب به كلمات ربى فى التشريع والتكوين وغيرهما ، لنَفِدَ هذا المداد وفَنِىَ قبل أن تنفد كلمات ربى وتفنى ، ولو جئنا بمثل هذا الماء العظيم مددًا وعونًا ، لأَن جميع ما فى الوجود على التعاقب والاجتماع – مُتَنَاهٍ ، وعلم الله وكلماته لاتتناهى ، والمتناهى لايفى ألبتة بغير المتناهى .

والمراد أن كلمات الله تعالى لايعتريها فناءٌ ولا نقص ، وعلمه لاغاية له ولانهاية ، فما علم العباد جميعًا بجانب علمه تبارك وتعالى إلَّا كقطرة من ماء البحور كلها . وفى معنى الآية الكريمة قولُه تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فى الْأَرْض من شَجَرَةٍ أَقلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْده سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلمَاتُ الله إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بنحو ما بدأها به من البشارة والنذارة فقال :

١١٠ – (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . .) الآية .

أى قل أيها الرسول للمشركين وللناس جميعًا : إنما أنا بشر مثلكم من بنى آدم ، لاأدعى الإحاطة بكلماته جل وعلا ، ولا أعلم إلَّا ما علمنى ربى ، وقد أوحى إلى أنما إلهكم الذى يجب أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئًا هو إله واحد لاشريك له .

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالحًا وَلَايُشْرِكْ بِعبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) : أى فمن كان يأمل تكريم ربه إياه بالثواب وحسن الجزاء عند لقائه ، فليعمل عملًا صالحًا موافقًا

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٧ :

لشريعة الله ، ولا يُرِدْ بعبادة ربه إلا وجه ربه وحده لاشريك له ، وهذان هما الركنان اللذان لا بد منهما لكل عمل متقبل ، أن يكون خالصًا لله سبحانه ، وأن يكون صوابًا وفق شريعة رسوله صلى الله عليه وسلم أو المعنى : فمن كان يخاف سوء لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا خالصًا لوجه ربه ولا يخلط به غيره .

روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ . مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِى غَيْرِى . تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[١] .وروى الشيخان عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَمَّعَ ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِى يُرَائِى اللهُ بِهِ »[٢] .

وروى مسلم عن أبي هريرة أيضًا[٣] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رجل استُشهد فَأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدْتُ ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قِيلَ ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلَّمت وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء . فقد قيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل وَسَّعَ الله عليهْ وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لله ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هُوَ جَوادٌ فقد قيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه ثم أُلقى فى النار » .

والله المستعان على الإخلاص فى النيات والأقوال والأعمال ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم .

---

(١) هذا كناية عن إحباط ثوابه وحرمانه من أجره ، لما اقترفه من ترك الإخلاص فيه والحديث يعم الشرك الجلى وكذا الشرك الخفى المعبَّر عنه بالرياء .

(٢) أى من سمع الناس بعمله ، أو راءاهم به ليحمدوه ويثنوا عليه ، أظهر الله سريرته لهم وملأ أسماعهم من سوء الحديث عنه فى الدنيا والآخرة ، فلم يظفر بما أظهره إلا بإبداء ما انطوى عليه من خبث السريرة .

(٣) فى كتاب الإمارة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

تمهيد :

هذه السورة التاسعة عشرة فى ترتيب المصحف .

ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب ، كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام . ولذلك ذكرت بعدها وهى مكية إلا آية السجدة (٥٨) . وآية الورود على النار (٧١) . وعدد آياتها ثمان وتسعون وقد حوت طائفة كريمة من قصص الرسل وأنباء الغيب .

افتتحها الله تعالى بقصة زكريا عليه السلام إذ دعا ربه أن يَهَبَ له وليًّا يرثه فى الدعوة إليه والحفاظ على شريعته . فاستجاب له ربه وبشره بغلام سماه يحيى ولم يجعل له من قبل سميًّا وآتاه الحكم صبيا . ولما تعجب زكريا من خلق الولد من أم عاقر وأب بلغ من الكبر عتيًّا – أوحى إليه ربه أن هذا الخلْقَ « هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » ثم ذكر تعالى قصة مريم عليها السلام . . . وهى أعجب من قصة زكريا ! ! وفيها أن جبريل عليه السلام تمثل لها بشرًا سويًّا . ففزعت واستعاذت بالرحمن منه . فطمأنها بأنه رسول ربها ليهب لها غلامًا زكيًّا . فلما تعجبت من أن يكون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تَكُ بَغِيًّا – « قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » .

وكذلك كان عيسى عليه السلام آية من آيات ربه الكبرى : فى حمله وولادته . وقوله فى المهد : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ . . » ثم قال تعالى : « ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .

ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه إلى الصراط السوىّ ، بأرق ما تكون الدعوة من الرفق والحنان ، فيقول : « يَآ أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَآ أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا . يَآ أَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » . فيقابل أبوه هذا الرفق والحنان ، بأشق ما يكون من العنف والقسوة والجحود والعصيان ، فيقول : « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَآ إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » . وهنالك لم يجد إبراهيم عليه السلام بُدًّا من أن يعتزل أباه وقومه وما يعبدون من دون الله . قال تعالى : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » .

ثم ذكر تعالى كليمه موسى عليه السلام ومناجاته إياه فى الطور ، وهبة الله له أخاه هٰرُونَ نبيًّا . ثم أثنى سبحانه على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، وَأَمْرِهِ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة « وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . وعلى إدريس عليه السلام بأنه : « رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا » . ثم أثنى تبارك وتعالى على المصطفَيْنَ الأخيار من عباده فقال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » .

وذم الذين خَلَفُوهم مِنْ بعدهم ، فلم يهتدوا بهديهم ، بل أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ جزاءهم « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » . ومما ذكره الله تعالى فى هذه السورة الكريمة ، أنه يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين . . وأن جميع الخلق يَرِدُون جهنم : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » وبعد ذلك يستنكر سبحانه أشد الاستنكار ، ما زعمه الزاعمون من اتخاذه ولدًا ، إذ يقول : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا » ثم يَعِد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنه سيجعل بينهم محبة وَوُدًّا ثم يختم سبحانه السورة الكريمة ببيان

تيسيره القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه ، بإنزاله بلسانه ولسانهم ، حيث أنزله « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » . ليسهل عليه تبليغهم كتاب ربهم . ويبشر به المتقين بحسن المثوبة . وينذر به المجادلين المعاندين بشديد العقوبة . إذ يقول : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا » .

وأخيرا يضرب الله المثل بأمثالهم الذين أهلكهم فى القرون الماضية فلم يُبْقِ منهم أحدا ، فيقول – وقوله الحق – : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ذلك . ومما يلاحظ فى هذه السورة الكريمة أنه كثر فيها ذكر الرحمة والرحمٰن ، لما تجلى فيها من رحمة الله على عباده وهم فى أشد الحاجة إليها ! !

بسم الله الرحمن الرحيم

(كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾)

المفردات :

(نَادَى رَبَّهُ) : أى دعا ربه عز وجل . (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى) : ضعف عظمى ورق لكبر سنى . (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) : وتغلغل الشيب فى رأسى وفشا فيه . (الْمَوَالِىَ) : المَوْلَى : هو القريب الذى يلى أمر الرجل من عصبته ، كالأخ والعم وابن العم . (عَاقِرًا) : عقيمًا لا تلد . (وَلِيًّا) : ابنًا من صلبى يلى الأمر بعدى . (رَضِيًّا) : مرضيًا عندك قولًا وفعلًا .

التفسير

١ - (كهيعص) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعًا وعشرين سورة بأسماء بعض الحروف الهجائية ، وسورة مريم واحدة منها . وقد قال كثير من المفسرين : إن معانى هذه الحروف من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وهو أعلم بمراده منها . وقال بعضهم : هى أسماء للسور التى افتتحت بها ، وقال بعضهم : هى رمز للتحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ، مكون من جنس ما يَنْظِمُ العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا جميعًا عن الإتيان بسورة من مثله - وهم أئمة

الفصاحة والبلاغة - وجب التسليم بأنه من عند الله عز وجل ، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يأتي بسورة منه[1] .

٢ - (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) :

أى هذا الذى نقصه عليك - أيها الرسول - هو ذكر رحمة ربك لعبده ورسوله زكريا ، وهذا إجمال يأتى تفصيله قريباً . وزكريا عليه السلام نبى ورسول من أنبياء بنى إسرائيل ، من ولد سليمان بن داود عليهما السلام . روى الحافظ ابن كثير وغيره أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده فى النجارة ، وهكذا كان الأنبياء يأكلون من عملهم . وقوله تعالى :

٣ - (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا) : مرتبط بقوله سبحانه : « ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » .

أى أن رحمة ربك أحاطت بعبده زكريا ، حين دعا ربه دعاء مستوراً عن الناس ، ولم يسمعه أحد منهم وإنما أخفى دعاءه عليه السلام ، وأسر به وهو يتضرع إلى ربه ، لأن الإسرار بالدعاء أدل على الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة .

قال ابن كثير عن بعض السلف : قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه ، فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب ، فقال الله له : لبيك لبيك .

٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى . .) الآية .

هذا تفصيل وتفسير لكيفية ندائه ربه عليه السلام .

أى : إنى ضعف عظمى ورق لكبر سنى . والمراد : ضعُفتُ وخارت قواى . وإنما أسند الضعف إلى العظم ، لأن العظام عماد البدن ودِعَامُ الجسد ، فإذا أصابها الضعف والرخاوة تداعى ماوراءها وتساقطت قوته !

(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) : أى فشا الشيب وتغلغل فى رأسى ، وسرى فيه كما تسرى النار فى الحطب . (وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا) : أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً فى

(١) راجع ما كتبناه عن هذه الفواتح : أول سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس .

فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتُكَ استجبتَ لى ، توسل عليه السلام إلى ربه فى استجابة دعائه بما سلف من الاستجابة له عند كل دعوة دعاها – إثر تمهيد ما يستدعى الرحمة به من كبر سنه وضعف قوته ، فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهراً طويلا لايكاد يخيبه أبدًا ، ولا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره ، وفى هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه . . ويذكر المفسرون هنا ما يروى أن حاتماً الطائى – أو معن ابن زائدة – أتاه سائل فسأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه وقت كذا ، فقال : مَرْحَباً بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته . . وأين كَرَمُ الكرماء أجمعين ، من كَرَم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم . .

٥ – (وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَآئِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا . .) الآية .

هذا عطف على قوله : « إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى . . » مندرج فيما يستدعى رحمة ربه واستجابة دعائه ، أى وإنى خشيت أقاربى الذين يلون الأمر من بعد موتى ، ألا يحسنوا الخلافة ، فيسيئوا إلى الناس ، ولا يقوموا مقامى فى الدعوة إليك والحفاظ على شريعتك وإنما خافهم لأنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل ، وكانت امرأته عاقرًا لا تحمل ولا تلد ، من شبابها إلى شيبها ، وهذا مما يزيد أقاربه تلهفا على خلافته وإن لم يحسنوها .

قدم عليه السلام فى ندائه لربه وضراعته إليه ، ضعف قوته وكبر سنه وشيخوخته ، وخوفه من مواليه مع عقم امرأته – قدم هذا بين يدى سؤاله ربه هبة طيبة من ذريته[1] وذلك قوله : (فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا) :

أى أعطنى من فيض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة ، ابنا من صلبى يلى الأمر من بعدى يقوم مقامى ويحسن خلافتى ، وإنى وإن كنت متقدماً فى السن ، وكانت امرأتى عاقرًا – ولا تزال – فإنك قادر على تحقيق مطلبى من غير الأسباب العادية ، وأنك إذا أردت ، قلت للشىء : كن ، فيكون . ثم وصف عليه السلام وليه الذى استوهبه من ربه فقال :

---

(١) اقتباس من قوله تعالى فى سورة آل عمران : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » الآية ٣٨ .

٦ - (يرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ . .) الآية .

أى يكون وارثاً لِى فى العلم والنبوة ، ليسوس بنى إسرائيل بمقتضى الشريعة والعدل ، فقد تعدى حدود الله كثير منهم ، وطغوا وبغوا وضلوا عن سواء السبيل ، وقوله : « وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » توكيد لهذا الميراث النبوى الذى طلبه لوليه ، فإن زكريا من ذرية يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، عليهم صلوات الله وسلامه ، وكانت النبوة فى بيت يعقوب وآله - وآل الرجل هم خاصته الذين يئول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين فمراد زكريا عليه السلام بهذا التوكيد أن يكون ابنه نبيًّا كما كانت آباؤه أنبياء ،ولم يرد عليه السلام وراثته فى المال ، لأن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا آلهم ديناراً ولا درهماً ، فقد كانوا أزهد الناس فى الدنيا ، وإنما وَرَّثُوا العلم والنبوة . على أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يأكل من كسب يده - كما قدمنا عن الحافظ ابن كثير وغيره . قال الحافظ ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : « نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ »[1]. وعلى هذا فتعين حمل قوله : « يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » على ميراث النبوة . انتهى ما قال الحافظ ابن كثير ملخصاً .

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) :

أى واجعله يارب مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

(١) فى مشكاة المصابيح للتبريزى - فى أحاديث هجرته ووفاته صلى الله عليه وسلم : عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » متفق عليه .

(يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾)

المفردات :

(سَمِيًّا) : أى شريكاً فى اسمه أو شبيهاً له .

(أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام ؟ أو من أين ؟ .

(عَاقِرًا) : عقيماً لا تلد .

(عِتِيًّا) : العتى – بكسر العين وضمها وفتحها – غاية الكبر والشيخوخة ، يقال : عتا الشيخ أى كبر وولّى .(أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام أو من أين ؟

(سَوِيًّا) : سوى الخلق ، سليم الجوارح ما به شائبة نقص تعيبه .

(الْمِحْرَابِ) : المسجد أو المصلى .

(فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ) : الإيحاء هنا بمعنى الإشارة وهى محتملة لأن تكون بيده أو برأسه أو بالكتابة أو نحو ذلك .

(سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : نزهوا ربكم دائما ، أو صلوا له طرفى النهار

التفسير

٧ - ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ . . .﴾ الآية .

هنا كلام مطوى يشير إليه السياق على عادة القرآن الكريم .

والمعنى : استجاب الله تعالى دعاء عبده زكريا وقال له على لسان الملائكة : « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ . . . » كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ . . . »[1] . وقوله تعالى :

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ : أى لم نجعل له شريكا فى هذا الاسم ، فلم يُسمَّ أحد قبله يحيى ، وفى هذا مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام . وعن مجاهد أن « سميا » معناهُ شبيها ، أخذه من قوله تعالى : « فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا »[2] . أى شبيها أى لم نجعل له شبيها ، حيث إنه لم يعص ولم يهمَّ بمعصية ، فقد أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مامِنْ أحدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إلاَّ وَقَدْ أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ إلاَّ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لَمْ يَهُمَّ بِخَطِيئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا». قال الآلوسى : والأخبار فى ذلك متضافرة . اهـ .

ويؤيد ذلك قوله تعالى فى شأنه : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »[3] .

٨ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ :

أى قال زكريا عليه السلام : يارب كيف يكون لى غلام وكانت امرأتى - ولا تزال - عاقرا لاتحمل ولا تلد ، وقد بلغت سن اليأس من الولد ؟ « وهذا تعجب بحسب العادة » ، لا استبعاد منه لقدرة الله - وحاشاه - فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سنه كانت إذ ذاك مائة وعشرين سنة ، وكانت سن امرأته ثمانياً وتسعين ؛ ولا يولد لمثلهما عادة ، ولكن لله تعالى خرق العادة ، وما المعجزات التى أيد الله بها رسله إلا خرق لها . . .

---

(١) من الآية : ٣٩

(٢) سورة مريم ، من الآية : ٦٥

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٩

٩ ـ (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . .) الآية .

أى قال الله تعالى على لسان الملك مجيبا زكريا عما تعجب منه : الأمر كما بُشِّرْتَ به ، وإيجاد الولد منك ومن زوجك هذه لامِنْ غيرها سهل يسير على .

ثم ذكر له ماهو أعجب منه فقال : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » :

أى وقد خلقتك من قبل خلق يحيى الذى بشرتك به ، ولم تكن شيئاً مذكورا ، حيث خلقتك من تراب فى ضمن خلق أبيك آدم ، أو وأنت نطفة لم تكن شيئاً مذكورا بجانب ما أنت عليه الآن ، فمن قدر على خلقك مما يشبه العدم ، فهو قادر على تحقيق ما بشرك به .

١٠ ـ (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً . . .) الآية .

أى قال زكريا عليه السلام : يارب اجعل لى علامة ودليلا على حمل امرأتى ، أو على وجود ما وعدتنى به ، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى ، كما قال إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى »[1] .

(قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) :

أى قال الله تعالى : علامتك على تحقيق ما وعدتك أن يحبس لسانك عن كلام الناس وأنت سوى الخلق سليم الجوارح ، ليس بك شائبة خرس ولا بكم . فكان عليه السلام يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم الناس إلا إشارة ورمزا . والمراد ثلاث ليال بأيامها ، وفقاً لآية آل عمران : « قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ »[2] .

١١ ـ (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

روى أن قومه كانوا من وراء المسجد ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيرا لونه ، فأنكروه وقالوا : مالك ؟ فأشار إليهم بيده إشارة خفيفة سريعة : أن نَزِّهُوا ربكم دائماً أو صَلُّوا له طرفى النهار .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٠

(٢) الآية : ٤١

(يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾)

المفردات

(الْكِتَابَ) : المراد به التوراة . (الْحُكْمَ) : الحكمة ، أو الفهم والفقه فى الدين . . وقيل النبوة . (وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا) : أى رحمة عظيمة فى قلب يحيى من عندنا وشفقة منه على الناس ومحبة لهم صادرة منا .

(وَزَكَاةً) : أى طهارة بريئة من الذنوب والآثام . أو بركة عظيمة .

(وَكَانَ تَقِيًّا) : وكان فى أعلى درجات التقوى لله عز وجل .

(وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا) : ولم يكن متكبرا متعالياً على الناس .

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) : السلام هنا : الأمان من الله تعالى فى الأيام الثلاثة ، أو التحية منه سبحانه .

التفسير

١٢ - (يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ . . .) الآية .

هنا كلام مطوى حذف مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . أى : ولد الغلام المبشر به . وبلغ سناً يؤمر مثله فيها ، فقلنا له على لسان المَلَك : يا يحيى خذ التوراة بجد وعزم فاستظهرها واعمل بما فيها . (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) : أى وأعطيناه الحكمة والفقه فى الدين والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حَدَثٌ . قال الآلوسى : أخرج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى ذلك : أعطى

الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين ، وفى رواية أُخرى عن ابن عباس أَيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال الغلمانُ ليحيى بن زكريا عليهما السلام : اذهب بنا نلعب ، فقال أَلِلَّعِبِ خلقنا ؟ اذهبوا نصلى ، فهو قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . قال الآلوسى : والظاهر أن الحكم على هذا بمعنى الحكمة ، وقيل هى : بمعنى العقل . . وقيل النبوة ،وعليه كثير ، قالوا أُوتيها وهو ابن سبع سنين . . . .ولم ينبأْ أَكثر الأَنبياء عليهم السلام قبل الأَربعين . انتهى كلام الآلوسى مختصرا .

١٣ – (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) :

أى وآتيناه رحمة عظيمة فى قلبه ، وشفقة على الناس ومحبة لهم ، وآتيناه كذلك بركة عظيمة من عندنا ، فجعلناه مباركا نفَّاعاً ، معلما للخير وداعيا إليه ، وكان عظيم التقوى لله عز وجل ، وتقدم أنه ما هم بمعصية ، فضلا عن اكتسابها .

١٤ – (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) :

أى وكان يحيى عليه السلام كثير البِر والإحسان بوالديه ، إذ هما أَقرب الناس إليه ، وحقهما فى الطاعة يلى حق الله عز وجل ، ولم يكن متكبرا على عباد الله متعالياً عليهم بل كان لين الجانب متواضعاً كريما مطيعاً لربه قدوة فى المكارم ، وهذه الصفات التى وصف الله بها يحيى عليه السلام ، هى صفات المؤمنين الكاملين ، الذين بلَّغهم الله تبارك وتعالى أَعلى درجات الصلاح والتقوى . فسبحانه وتعالى أَعطى وأَثنى .

وبعد أَن أَثنى الله على يحيى بهذه الصفات الكريمة ، أَتبعها السلامَ عليه فقال عز من قائل :

١٥ – (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) :

أَى : وأَمانٌ منا على يحيى يوم ولدَ – من أَن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ؛ ويوم يموت – من وحشة فِراق الدنيا وهول القبر ؛ ويوم يبعث حيا – من أَهوال يوم القيامة .

وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » إشارة إلى أن البعث جسمانى وروحانى معا . لا روحانى فقط كما يزعم بعض الفلاسفة . أو للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء[1] .

وقيل إن المراد بالسلام هنا التحية المتعارفة . قال ابن عطية : إن هذا هو الأظهر ، والتشريف بها لكونها من الله تعالى فى المواطن التى يكون فيها العبد فى غاية الضعف والحاجة والفقر إلى الله عز وجل .

ذلك . ومما يعد من اللطائف النبوية ما رواه الطبرى وابن كثير عن الحسن قال : إن يحي وعيسى عليهما السلام الْتَقَيَا ـ وهما ابنا الخالة ـ فقال يحي لعيسى : استغفر لى أنت خير منى . فقال له عيسى : بل أنت خير منى . سلمت على نفسى وسلم الله عليك . . .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾)

المفردات :

(انتَبَذَتْ) : اعتزلت وانفردت . (رُوحَنَا) : جبريل عليه السلام ، سماه تعالى روحاً ، لأن الدين يحيا بالوحى الذى ينزل به . (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : فتصور لها إنساناً مُسْتَوِىَ الخلق كامل البنية . (أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ) : أتحصن بالرحمن منك وألتجىء إليه.

(١) فقد اشتهر أنه هو وأبوه زكريا عليهما السلام ممن قتلهم اليهود . قاتلهم الله . وقد ذكر قتلهم للأنبياء فى كثير من آى الذكر الحكيم ... بل زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم « وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم » سورة النساء الآية ١٥٧

(زَكِيًّا) : طاهرا من الذنوب والآثام ، من الزكاة بمعنى الطهارة ، أو ناميا على الخير والبركة ، من الزكاة بمعنى النمو .

التفسير

١٦ – (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا) :

لما ذكر الله تبارك وتعالى قصة زكريا عليه السلام . وأنه تعالى وهب له فى حال كبره وعقم زوجته غلاماً زكيا مباركا – عطف على قصته قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام ، لِمَا بين القصتين من مناسبة عظيمة ومشابهة قوية – وقد قرن تعالى بين القصتين فى هذه السورة ، وفى سورة آل عمران وفى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والمخاطب هو سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم . والمراد بالكتاب القرآن الكريم ، كما هو الظاهر . وقال العلامة أبو السعود : المراد بالكتاب السورة الكريمة ، لا القرآن كُلُّه ، إذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها . ا هـ .

والمآل واحد . فإن ذكرها فى هذه السورة يعتبر ذكراً لها فى القرآن .

والمعنى : واذكر –أيها الرسول – فى القرآن قصة مريم حين اعتزلت أهلها وانفردت عنهم ، وأتت مكانا شرقىَّ بيت المقدس[1] ، لكى تتفرغ فيه لعبادة ربها ، وكانت مستترة من أهلها ومن الناس بساتر يحجبها ، أو اتخذت مكانا شرقى دارها بعيدا عن أهلها لئلا يشغلها أحد منهم عن عبادة ربها وذلك قوله تعالى :

١٧ – (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً) الآية .

أى فاتخذت بينها وبينهم ساترا يحجبها عنهم ، روى أنه كان موضعها فى المسجد ، فبينما هى فى خلوتها أتاها جبريل عليه السلام فى صورة إنسان تام الخِلْقَة ، كامل البِنية جميل الصورة ، وذلك قوله تعالى :

(فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : وإنما جاءها عليه السلام فى صورة إنسان كامل . لتستأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلمات ربها . إذ لو بدا لها

(١) أو أنه كان من المسجد الأقصى بناحيته الشرقية .

على حقيقته الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ، ومن عادة الملَك إذا تصور بصورة إنسان أن يكون جميل الصورة ، كما كان جبريل عليه السلام يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية رضى الله عنه ، وكان من أجمل الناس . وقد يكون من الحكمة فى مجيئه على الصورة الجميلة ابتلاؤها وسبر عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مالا غاية وراءه . . . .

١٨ - (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) :

أى لما تبدى لها جبريل عليه السلام فى صورة إنسان ، وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب - لَمَّا حدث ذلك - خافته ، وظنت أنه يريد بها سوءا ، فاستعاذت بالله - وهو أرحم الراحمين - أن يحفظها برحمته منه . ولعل هذا هو السر فى استعاذتها باسمه الرحمن دون غيره من أسماء الله الحسنى . وقولها « إِن كُنتَ تَقِيًّا » أى إن كنت تتقى الله تعالى وتخشى الاستعاذة به ، فلا تمسَّنى بسوء - فإنى عائذة به ولاجئة إليه .

١٩ - (قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) :

أى قال جبريل عليه السلام مجيبا إياها ، ومزيلا خوفها : إنمَا أنا رسول ربك الذى استعذتِ به منى ، فقد بعثنى إليك لأكون سببا فى هبته لك غلاما طاهراً مباركا بالنفخ فى جيب درعك[1] .

ومن اللطائف ما ذكره الآلوسى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنها لما قالت : « إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا » تبسم جبريل عليه السلام وقال : « إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » .

(١) جيب الدرع : طوق القميص .

(قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) : المراد ؛ ولم أتزوج .

(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) : أى ولم أكن زانية تبغى الرجل أو يبغيها الرجال للفاحشة .

(وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) : أى وكان حمل مريم أمراً سبق به القضاء أزلا فلابد منه .

التفسير

٢٠ - (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) :

أى قالت مريم لجبريل - عليهما السلام - وهى دهشة متعجبة : كيف يكون لى غلام ولست متزوجة ولا زانية ، ولا يكون الغلام إلا من إحداهما ؟ ..

٢١ - (قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . .) الآية .

أى قال جبريل لمريم مجيبا إياها ومزيلا دهشتها وتعجبها : الأمر كما قال ربك : إن خلق هذا الغلام منك بلا نكاح ولا سفاح سهل يسير على . وقوله تعالى :

(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ) : معطوف على مقدر مناسب مفهوم من السياق ، والاختصار من الصور البلاغية فى القرآن ، وتقدير الكلام : لنبين للناس كمال قدرتنا ، ولنجعل خلق هذا الغلام من غير أب علامة عظيمة على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذى نوَّع فى خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر وأنثى ، وخلق أمهم حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى ، خلقه من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم

سلطانه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، وقوله سبحانه .

(وَرَحْمَةً مِّنَّا) : أى ولنجعل هذا الغلام رحمة منا عظيمة، لمن يؤمنون به ويهتدون بهديه ، ويسترشدون بإرشاده ، وفى ضمنه .. إعلامهم برسول من بعده اسمه أحمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله جل شأنه : (وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا) :

أى وكان خلق هذا الغلام بلا أب أمراً قضيناه وقدرناه أزلا ، فهو مقضى كائن لامحالة ، كقوله جل سلطانه : « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُوراً »[1] .

(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) : أى فاعتزلت به مكانا بعيداً عن أهلها .

(فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ) : فألجأها ألم الولادة وشدة أوجاعها . (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) : الجذع هو الساق ليس عليها سعف ولا أغصان . (وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) :النَّسْىُ : الشىءُ التافه الذى شأنه أن ينسى لحقارته كالحبل والخِرَقِ البالية ،والْمَنْسِىُّ المتروك المهمل لتفاهته ، وهو تأكيد لما قبله .

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية : ٣٨

(السَّرِىُّ) : الجدول الذى يسرى فيه الماء ، أو السيد العظيم الخصال .

(رُطَبًا جَنِيًّا) : أى صالحا للاجتناء والقطع بعد أن صار طريا ، وقال أبو عمرو بن العلاء « رُطَبًا جَنِيًّا » لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه .

التفسير

٢٢ - (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) :

أى فاطمأنت مريم عليها السلام إلى قول جبريل ، فدنا منها فنفخ فيها ، فحملت بالغلام الذى بشرها به عقب النفخ فيها ، فلما قرب وضعها قصدت مكانا بعيداً عن أهلها ، فراراً من تعييرهم لها ، وقد روى أنه قرية على بضعة أميال من بيت المقدس يقال لها بيت لحم . حكى ذلك ابن وهب .

٢٣ - (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ...) الآية .

أى فألجأها الطلق وشدة الولادة وأوجاعها ، بسبب تحرك الجنين نحو الخروج - ألجأها ذلك - إلى جذع النخلة وهو ساقها ، لتستند إليه وتتعلق به ليكون عونا لها على قوة الاحتمال ، والتستتر به عن أعين الناس ، وكان جذعا لنخلة يابسة على أكمة فى الصحراء لا سعف له ولا غصن عليه . فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها عليها السلام لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة ، فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف . اهـ ولو كانت ذات سعف أخضر وفيها حياة لقال : فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى النَّخْلَةِ .

ولعل الله أرشدها إليه ليريها آية من آياته ، كإثماره بدون سعف ومن غير لقاح وفى وقت لم يعهد فيه وجود ذلك الثمر ، تسكينا لروعها ، وتطمينا لنفسها بمثل هذه الخوارق ، ولكنها عندما أحست أنها ستتهم فى الإتيان بهذا المولود بعد أن كانت عندهم عابدة ناسكة ، وأنها سوف تصبح فيما يظنون عاصية فاجرة ، تمنت الموت كما حكى الله عنها ذلك بقوله :

(قَالَتْ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا) : ياليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود بغير بَعْلٍ ، فهى مدفوعة إلى هذا القول مما شعرت به من ألم النفس استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم وحذرا من وقوعهم فى المعصية بما يتكلمون فى عفتها ، فقد توقعت فتنة شديدة بين أهلها وذويها ، وقذفا عنيفا يمس شرف أصلها ، وطهارة أبيها وأمها ،

فأثار ذلك أحزانها وجعلها بعد تمنى الموت تتمنى أن تُنسى فلا تذكر أبدا حيث قالت :

(وَكُنتُ نِسْيًا مَّنسِيًّا) : أى وكنت شيئا تافها ، يطرح فلا يتألم لفقده لتفاهته وعدم الاهتمام به ، والمنسى الذى لا يخطر ببال أحد من الناس ، فذكره بعد . « نِسْيًا » لتأكيد إهمال هذا الشىء ، وكأنها تريد كما قال أبو زيد : لم أكن شيئا قط . أو كما قال قتادة : شيئا لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا . .

٢٤ ـ (فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَا . .) الآية .

المنادِى إما جبريل ، وإما عيسى عليهما السَّلام ، فعلى الأَول يكون المعنى : فناداها جبريل من مكان أسفل منها فى بقعة تنخفض عن البقعة التى كانت بها ، حين فاجأَها المخاض ، وقد ذهب إلى أن النداء كان من جبريل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وأما على أن المنادِى عيسى فقد أنطقه الله حين الولادة . وروى ذلك عن مجاهد ووهب وابن جبير ونقله الطبرسى عن الحسن .

وقرىء (مِنْ تَحْتِهَا) بفتح الميم وكسرها . وعلى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون المنادِى جبريل أو عيسى عليهما السلام كما تقدم .

(أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) : هذا تفسير للنداء السابق . أى أن المنادِى هتف بها عن قرب منها ، ينهاها عن الحزن خوفاً من مقالة الناس بشأن ولادتها من غير زوج قائلا فى ندائه : لا تحزنى قد جعل ربك تحتك غلاماً شريفاً سيكون له شأن عظيم .

ثم أتبع سبحانه الحديث عن شرف وليدها حديثاً آخر عن طعامها فى نِفَاسِها تذكيراً بآلائه ، ورضاه عنها ، وتخفيفاً لكربها . . .

٢٥ ـ (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ . .) الآية .

أَمرها بهز جذع النخلة لترى آية أُخرى من آيات الله فى إحياء مواتِ الجذع ، أى حرِّكيه تحريكاً متوالياً بطريق الجذب إلى جهتك .

(تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) : تكفل الله بإطعامها بمالا يتعبها ولا يشقيها ، بل بما هو فى متناول يدها ، حيث أمرها بهز جذع النخلة إلى جهتها هزًا متعاقباً ، تُسَاقط أى تُسْقِطْ

عليها النخلة تمرًا نضيجا قد طَرِىَ وأصبح صالحاً للاجتناء؛ والرُّطب ـ كما قيل ـ من أطيب الأطعمة للنُّفَساء . فقد ثبت طبياً أنه يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية بصورة مركزة سهلة الهضم ، محققة الفائدة ، ولو علم الله طعاماً يفضله لأطعمه مريم عليها السلام ، وعلى الرطب وغيره من أنواع التمر يعتمد كثير من القبائل العربية وغيرها إلى أيامنا هذه ، وتجد فى تلك الأنواع كل ما تحتاجه مقومات الحياة .

٢٦ - (فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا . .) الآية .

امتنَّ سبحانه على مريم عليها السلام بما تضمنته الآيتان السابقتان من إخراج الرطب لها فى غير وقته خرقاً للعادة ، لتسليتها عن حزنها ، ولتنزيه ساحتها عما تختلج به صدور المتقيدين بالأحكام العادية ، وقد جاءت هذه الآية تفريعاً على ما ذكر ، لتأمرها بالأكل من الرطب والشرب من الماء حولها ، وبأن تطيب نفساً إيذاناً بحسن العاقبة .

والمعنى : فكلى من الرطب الجنى ، واشربى من الماء النقى - وقيل من عصير الرطب - وطيبى نفسا بعيسى وأذهبى عنك ما أحزنك . بشأن مولده دون أب . وما يترتب عليه من سوء القالة ، فسوف نبرئك مما يشينك ، ونجعل لولدك شأنًا عظيماً .

هذا : ومما قيل فى معنى « وَقَرِّى عَيْناً » اجعلى عينك تسكن للراحة والنوم ، قال أبو عمرو : أقر الله عينها أى أنامها وأذهب سهرها . وقال الشيبانى « وَقَرِّى عَيْنًا » أى نامى . وكل ذلك متقارب المعانى . وقدم الأمر بالأكل فى الآية . ليجاور ما يشاكله وهو الرطب . والأمر يحتمل الوجوب والندب . وذلك حسب حالها التى هى عليها ، وقيل هو للإباحة .

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا) : كائنا من كان يريد أن يستنطقك ويتحدث معك ، فيسألك عن وليدك (فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً) : أى قولى هذه الجملة وعبرى عن معناها بلغتك تعبيراً لفظياً ، وبه قال الجمهور ، وقال جماعة : القول هنا بالإشارة لا بالكلام ، وكان صومهم إمساكاً عن الطعام والكلام كما تأمرهم به شريعتهم . قال

ابن زيد والسدى : كانت سنّة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام مطلقاً، وقيل الصوم هنا بمعنى الصمت ، ولذا قالت عقبه : « فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » فكان صيامهم الصمت ، وقد نذرته ، وليس هذا فى شرعنا وإن كان قربة فى شرع من قبلنا ، فإن نذره أحد لا يلزمه الوفاء به لما فيه من المشقة ،وقد دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة نذرت ألا تتكلم ، فقال لها : إن الإسلام هدم هذا فتكلمى ، وكذلك فعل ابن مسعود[1]. وقد تمسكت مريم بصمتها الذى نذرته حيث حكى الله عنها قولها :

(فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا) : أى إنى أمتنع اليوم امتناعاً قاطعاً عن تكليم أحد من البشر فرارًا من مجادلة السفهاء الذين ينكرون وجود ولد بدون أب ، ويلحُّون فى الجدل وإثارة الشكوك حولى ، وهى بهذه الطريقة المثلى تقطع ألسنة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بالثرثرة والاختلاق والإعراض عن سماع الحجة ، وقالت : « فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » لأن صيامها لايمنعها من مناجاة ربها أو التحدث مع الملائكة إن حدثوها ، وقيل إن قوله : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا . . . » الآية من كلام عيسى : لما قال لها لاتحزنى ، قالت له : كيف لا أحزن وأنت معى ، لا ذات زوج ولا مملوكة ، أى شىء عذرى عند الناس ؟ قال لها : أنا أكفيك الكلام ، «فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ » الآية . قال ذلك عبد الرحمن بن زيد ووهب[2] .

---

(١) فقد كان يأمر من نذر الامتناع عن الكلام أن يتكلم، عملا بحديث أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولايقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتمّ صومه » .

(٢) تفسير الطبرى .

(فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) : الفرى الأمر المختلق المصنوع . وقال الأخفش : فَرِيًّا : أى عجيباً .

(امْرَأَ سَوْءٍ) : السوء بالفتح والضم ، اسم لكل ماينزل بالإنسان من كل شىء يسوءه ، وقيل المضموم : الضرر والمفتوح الفساد (بَغِيًّا) : فاجرة . يقال بَغَتِ المرأة تبغى بِغاءً بالكسر فَجَرت فهىَ بَغِىّ . (فى الْمَهْدِ) : المهد هنا هو الموضع يهيأُ للصبى وَيُوَطَّأُ فى رضاعه كالمِهاد. (بَرًّا بِوَالِدَتِى) : مطيعاً غير عاقٍّ . (جَبَّارًا) : أى عاتيا يمتلىءُ قلبه بالشدة . (شَقِيًّا) : بعيدًا عن الخير .

التفسير

٢٧ - (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ . .) الآية .

لما اطمأَنت مريم لما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله سيدفع عنها ، سلمت أمرها لله ، واستسلمت لقضائه ، واستمسكت باصطحاب ولدها ، فأَتت به قومها تحمله من المكان

القصى الذى انتبذت به ، فلما رأوها ومعها الصبى ، حزنوا حزناً شديداً ، وأعظموا أمرها ، واستنكروه بقوة ، وعلت أصواتهم محزونين .

(قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) : أى شيئاً مختلقاً مُفْتَرًى ، وفى البحر أن الفَرِىَّ يستعمل فى العظيم من الأمر شرًا أو خيرًا ، قولا أو فعلا ، ويراد به هنا كونه أمرًا خطيرًا ، جديرًا بكل إنكار . . .

٢٨ – (يَآ أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ . .) الآية .

الآية استئناف قصد به تجديد تعييرهم لها ، وسخريتهم منها ، وتأكيد توبيخهم إياها لِمَا ضيعته من أمجاد أهلها ، وليس المراد هارون أخا موسى بن عمران عليهما السلام لما بينهما من سنين طويلة ، وإنما هو رجل صالح فى بنى إسرائيل وكان هذا الاسم يشيع فيهم لأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين فيهم ، فكأنهم قالوا لها : يا أخت هذا الرجل فى الصلاح والتقوى فى أول أمرك ، كيف انتهيت إلى فعل هذه الخطيئة ؟ ! وقيل : هو رجل فاسد شبهت به شتمًا لها ، وقيل المراد به هارون أخو موسى عليهما السلام ، أخرج ذلك ابن أبى حاتم عن السدى وعلى بن أبى طلحة ، ووصفت بأخوتها له ، لأنها كانت من نسله ، كما يقال يا أخا العرب لمن كان منهم ، والتوجيه الأول أصح ، ففى مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قَدِمْتُ نجران سألونى فقالوا : « إنكم تقرءُون يَاأُخْتَ هَارُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قَدِمْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : « إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصلحائهم » .

ومعنى هاتين الآيتين ، كيف تأتين هذا الأمر العظيم ، وقد عُرِفتِ بالصلاح والتقوى كما عُرِفَ بها هارون ، وأبوك لم يكن امرأ سوء يتصف بِشَرٍّ أو فساد ، وما كانت أمك منحرفة فاجرة ، بل أنت فى ماضيك البعيد والقريبَ من بيئة لا ينبغى أن تُنْبتَ إلا الطيبين الطيبات ، وفى ذلك إشارة إلى أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش من ارتكابه ممن سواهم وتنبيه على أن الفروع غالباً ما تكون زاكية إذا زكت الأصول ، وتكون خبيثة إذا لم تكن أصولها كذلك .

٢٩ - (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . .) الآية .

أى فأشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه وسلوه عما تريدون ، تنفيذًا لما أمرت به ، وحينما فهموا إشارتها .

(قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) : أى قالوا منكرين ما فهموه منها حين أشارت إلى عيسى ، متعجبين لهذا الأمر ، حيث إنه لم يعهد فيما سلف أن صبيا يكلمه عاقل ، وهو فى فراشه الممهد له وفى سن رضاعه ، فكيف تكلم هذا ؟ قال السدى لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لَسُخْرِيَتُها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها . .

٣٠ - (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ...) الآية .

هذا كلام مستأنف ، كأنه قيل : فماذا كان بعد إشارتها إليه أن يكلمهم بعد أن وقع منهم ما وقع من إنكار وتعجب ، فكان الجواب : قال عيسى إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى ، وبربوبية الله لعيسى ثم ذكر فضل الله عليه حيث يقول : « آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا » أى حكم أزلا بإيتائى الإنجيل ، وإن لم يكن منزلا إذ ذاك ، وحكم كذلك بإيتائى النبوة بمعنى أعدَّنِى لها ، وجعلنى ذا قدرة على تحمل أعبائها .

وفى كل ما قاله تنبيه على براءة أمه ، لدلالته على اصطفائه ، والله سبحانه أجل من أن يصطفى المطعون فى نسبه وذلك من المسلمات عندهم ، ففيه من إجلال أمه بالتلميح ما ليس فى التصريح .

٣١ - (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ . .) الآية .

أى وجعلنى ذا بركات ومنافع فى الدين ، فأى مكان وُجدت فيه فأنا مبارك ممتثل أمر ربى . وعن سفيان : جعلنى مُعَلِّم الخير ، آمرًا بالمعروف ، وناهيًا عن المنكر . (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) : وأمرنى بأدائهما مدة بقائى حيًّا فى هذه الدنيا أمرًا مؤكدًا ، فلا أتوانى عنهما منذ يبدأ تكليفى بهما ، حتى ينتهى أجلى ، وقد اقتصر على الصلاة والزكاة من بين ما سوف يشرعه الله فى دينه لأهميتهما ، ويجوز أن يراد بالزكاة تطهير النفس من الرذائل وقد أوصانى بذلك . . .

٣٢ـ (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي . . .) الآية .

أى وجعلنى بارًّا بها امتثالًا لأمره بهذا البر ، فهى السبب فى وجودى فى هذه الدنيا بعد مشيئة الله تبارك وتعالى .

قال ابن عباس : لما قال : وبرًّا بوالدتى ولم يقل وبرًّا بوالدى ، علم أن هذا الصغير شىءٌ من جهة الله تعالى . ا هـ

وفى ذلك تأكيد لطهارة أمه ، وقرىء وبِرًّا بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة كأنه نفس البر .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) : أى ولم يجعلنى فى علمه الأزلى مستكبرا عن عبادته وطاعتهَ وبر والدتى ، فأكون بذلك شقيًّا عاصيًا لربى عاقًّا لوالدتى ، وقال بعض السلف لاتجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلّا وجدته جبارًا شقيًّا .

٣٣ـ (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ . .) الآية .

أى وحصنى الله بالسلامة والأمن فى الدنيا حين ولدت ، وفى القبر حين أموت ، وفى الآخرة يوم أبعث حيًّا ، فقد سَلِمَ عليه السلام فى أحواله كلها ، من غضب الله تعالى وعقابه ، وفى قوله عليه السلام تعريض بما يصيب مُتَّهِمِى مريم وأعدائها من اليهود ، من فزع واضطراب وما ينزل بهم من سوء العذاب . ونظيره « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى »[1] . يعنى أن العذاب على من كذب وتولى ، حيث كان المقام مقام معارضة وعناد فهو منته إلى نحو هذا من التعريض .

---

(١) سورة طه ، من الآية : رقم ٤٧

(ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(يَمْتَرُونَ) : يختلفون ويتخاصمون .

(سُبْحَانَهُ) : تنزيهاً له جل وعلا عن النقائص .

(إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا) : أراده وحكم به .

التفسير

٣٤ - (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . . .) الآية .

ذلك الذى قصصنا عليك من أمره هو عيسى بن مريم ، فليس أمره كما اعتقده اليهود أو النصارى. نقول ذلك (قَوْلَ الحَقِّ) : أى القول الثابت الذى لا ريب فيه . وقرىء بالرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف أى هو قول الحق ، يعنى ذلك أن الكلام السابق هو قول الحق فى عيسى (الذِى فيهِ يَمْتَرُونَ) : أى يختلفون ويتنازعون فى شأنه ، فيقول اليهود إنه ساحر ويتهمون أمه بما هى بريئة منه ، ويقول النصارى إنه إله أو ثالث ثلاثة . وقد كذبهم الله بما سبق من الآيات وبقوله :

٣٥ - (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ . . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه أنه خلق عيسى عبدًا نبيا ، نزه ذاته المقدسة عن اتخاذ الولد بتكذيب فرية المفترين ودحض بهتانهم فقال تعالى : « ما كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » .

أى ما ينبغى وما يستقيم فى منطق عاقل أن يصف الله باتخاذ أى ولد لأنه سبحانه ليس من صفته اتخاذ الولد حيث إنه منزه عن الاحتياج إليه ولا إلى أحد من مخلوقاته ، « إن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » .

(إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) : أى إذا أراد إيجاد أمر من الأمور تعلقت به إرادته أوجده بلا توقف بقوله كن فيكون ، فمن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، وهو من أمارات الاحتياج والنقص ،ومع دلالة الآية على تنزيهه تعالى صراحة ، فهى تشير ضمنا إلى تكذيب النصارى وتبكيتهم على قبح عقيدتهم . «ومِنْ »فى قوله «مِن ولَد.»لإفادة التأكيد وقوله : « كُن فَيَكُونُ » على ماذهب إليه كثير من أهل السنة ، تمثيل إيجاد ما تتعلق به الإرادة بلا توقف- تمثيله - بالطاعة الفورية من المأمور لآمره ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث شيء أتى بالكاف والنون ،ففى الكلام استعارة تمثيلية ، ويرى آخرون أن الأمر فى « كُنْ » محمول على حقيقته وأنه سبحانه أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة « كُنْ » أزلا ومن ذلك عيسى عليه السلام خلق بكلمة كن فكان . . .

٣٦ - (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . .) الآية .

الظاهر أن هذا من تمام كلام عيسى عليه السلام وهو فى مهده ، يخبر به قومه بأن هذا الدين القيم هو دين الله الذى هو ربه وربهم - ويأمرهم بعبادته تعالى وبألا يشركوا به شيئاً . لأنه وحده المستحق للعبادة ، والسبيل إليه لا اعوجاج فيه ولا التواء كما يقول تعالى : (هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :أى هذا الذى حدثتكم به عن الله من التوحيد طريق قويم ، من سلكه رشد وسعد ومن أعرض عنه ضل وشقى .

وروى أن عيسى بعد تبرئته لأمه بما تقدم ، عاد إلى حالة الأطفال فلم يتكلم إلا فى الوقت المناسب للكلام ولم يصل ولم يصم وهو ابن يوم أو شهر ، ولو دام نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته من وقت الولادة لكان هذا مما يُروَى ولا يكتم ، وإنما اقتصر حديثه على وقت اتهام أمه لتبرئتها ودفع الحد عنها [1] .

---

(١) انظر القرطبى ج١١ ص١٠٣ طبع دار الكتب المسألة الثالثة بعد قوله : (ولم يجعلنى جباراً شقيا) .

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ) : الأَحزاب جمع ،مفرده الحزب وهو الطائفة وجماعة الناس ، والمراد بالأَحزاب هنا من اختلفوا فى شأْن عيسى عليه السلام من طوائف أَهل الكتاب .

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : الويل الهلاك ، أَو هو تفجيع من هول ما ينزل أَو هو كلمة عذاب .

(فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) : فى ضلال ظاهر لا يخفى على أَحد .

(إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) : أَى تم الفصل بين أَهل الجنة وأَهل النار .

التفسير

٣٧ـ (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ . . .) الآية .

هذه الآية مرتبة على ما قبلها تنبيها على سوء صنيع أَهل الكتاب حيث جعلوا ما يوجب الاتفاق فى شأْن عيسى عليه السلام ، بعد أَن تكلم فى المهد مبيّنا أَنه عبد الله ورسوله ، وكلمته أَلقاها إِلى مريم ، وروح منه ـ جعلوا ذلك منشأً للاختلاف فيه فطعن اليهود فى نسبه ، وغلت فيه النصارى ، فقالت طائفة منهم هو ابن الله ، وقالت أُخرى هو ثالث

ثلاثة ، وقالت طائفة ثالثة هو الله ، وفى تهديد هؤلاء جميعا ووعيدهم يقول تعالى :

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) : أى فالهول المفزع والعذاب الأليم لهؤلاء الكافرين بعيسى عليه السلام يوم يقع الحساب والجزاءُ العظيم ، حين يتضح لهم أنه عبد الله ورسوله ، وأمه طاهرة نظيفة العرض ، وأن الله تعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وأن مصيرهم السعير وبئس المصير ، وإنما أخر عقوبتهم إلى يوم الحساب ، لأنه لا يعَجِّل بعقوبة من عصاه ، لعله يثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه ، ويرجع عن غيّه « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »[1] .

٣٨ – (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا . . .) الآية .

أى حين يأتوننا يوم القيَامة للحساب والجزاء ، تكون أبصارهم حادة وأسماعهم قويّة فلا يكون أحد أسمع منهم ولا أبصر ، بعد أن كانوا فى دنياهم عُمياً وصُمّا ، فحالهم جدير بأن يتعجب منه ، وقيل هو تهديد وتخويف مما سيسمعون وينظرون يوم الموقف العظيم ، مما تنخلع له قلوبهم وتسود برؤيته وجوههم جزاء ما اقترفوا من صدّ وإعراض .

(لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : أى لكن الذين ظلموا أنفسهم فى الدنيا فى ضلال واضح بين ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ، فاعتقدوا كون عيسى إلها معبودا مع أنه بشر مثلهم حملته أمه كما حملتهم أمهاتهم ، وأكل وشرب واحتاج ، ولكنهم فى الآخرة يزولُ ضلالهم حين يسمعون الحق ويبصرون آياته ، فيعترفون بأنهم ظلموا أنفسهم ظلما بينا باعتقادهم الفاسد فى بنوة عيسى لله أو ألوهيته ، وهيهات أن ينفعهم ذلك الاعتراف بعد فوات الأوان . . .

٣٩ – (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى وأنذر الظَّالمين أيها النبيّ وخوّفهم من يوم القيامة الذى يتحسّرون فيه على ما فرطوا فى دنياهم ، وذلك حين يقضى الله فى أمرهم بسوء المصير وخالد العذاب – أنذرهم فى دنياهم

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٢

وخوفهم من ذلك وهم غارقون فى غفلة عن سوء مصيرهم فى هذا اليوم وحالهم أنهم لايؤمنون. فلعلهم بهذا الإنذار يفيقون من غفلتهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويؤمنون بربهم وبمحمد نبيهم ، فينجون من عذاب يوم الحسرة ، إن عذابه لأليم مقيم .

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دَخل أهلُ الجنة الجنة وأهلُ النارِ النار ، يجاءُ بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون ويقولون نعم . هذا الموت . قال : فيقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون ويقولون نعم هذا الموت . قال :فيؤمر به فيذبح . قال : ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة » وأشار بيده ، وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الأعمش به . ولفظهما قريب من ذلك .

ومجىء الموت فى هذه الصورة الحسية التى أبرزت فناءه بعد أن كان يميت الناس ، تبشيرٌ لأهل الجنة ببقائهم الدائم فى نعيمهم ، وتحزينٌ لأهل النار وتيئيسٌ لهم من مفارقة ماهم فيه من شقاء .

وقال أبو حيان : الضمير لجميع الناس — والمعنى : خوِّفهم قاطبة يوم يتحسرون ، فالظالمون يتحسَّرون على ما فرطوا فى جنب الله . والمحسنون يتحسَّرون على قلَّة إحسانهم وتوهم تقصيرهم فى طاعتهم . .

٤٠ — (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . .) الآية .

يخبر الله تعالى أنه المالك المتصرف ، وأن الخلائق كلها تهلك وتفنى ، ولا يبقى غيره سبحانه ، فيكون ميراث الأرض ومن عليها له وحده وهو خير الوارثين .

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : أى يردون إلينا يوم القيامة للجزاء والحساب لا إلى غيرنا استقلالاً عنَّا أو اشتراكاً معنا . .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(ٱلْكِتَٰبِ) : القرآن . (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً) : ملازماً للصدق .

(صِرَاطاً سَوِيًّا) : أى طريقا معتدلا لاعوج فيه ، والمراد الدين القيم الخالى عن الشرك .

(كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) : أى عاصيا . إذ العصى والعاصى بمعنى واحد . يقال عصاه فهو عاصى وعصى .

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) : أى نصيرا وقريناً تصاحبه فى النار .

(وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا)[1] : أى دهرًا طويلا .

(إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) : بمعنى أحاطنى بكثير من رعايته وإكرامه ، يقال حفى به كرضى ، حَفاوةً بفتح الحاء . وحِفاية بكسرها فهو حاف وحفى بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح . . . .

التفسير

٤١ ــ (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ . .) الآية .

العطف فى الآية الكريمة على « اذكر » فى قوله تعالى : « وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ » أو على « أنذرهم » فى قوله سبحانه : « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ » أى اتل أيها النبى على قومك نبأً إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم ، وبلغهم قصته . فقد عرفوا أنهم من ولده وينتمون إليه ، ويدعون أنهم على ملته ، فعساهم يقلعون عما هم فيه من القبائح التى من أشنعها عبادة الأصنام .

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا) : أى جامعاً بين ملازمة الصدق فى كل شئونه ما يأتى منها وما يدع ، وبين النبوة ، فهما وصفان متأصلان فيه وفق إعداد الله له ، وقال الكشاف : الصدِّيق من أمثلة المبالغة . والمراد أنه غلب كل من عداه فى فرط صدقه ، وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله وكل ما وصل إليه عن الله تعالى ، فكان نبياً فى نفسه بخلقه وسيرته ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق وقد صدق فى قوله وعمله ، وصدّق الأنبياء والمرسلين قبله . كما يقول تعالى « بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ »[2] . ومن صدقه الله بآياته ومعجزاته حرى أن يكون كذلك . انتهى باختصار .

---

(١) من الملاوة ــ مثلثة الميم ــ وهى مدة العيش ..

(٢) سورة الصافات ، الآية : ٣٧

وجملة « إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا » استئناف مسوقٌ لبيان الحكمة فى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام فى الكتاب والتنويه بشأنه ، فكأنه قيل : واذكر فى القرآن إبراهيم لأنه كان صدّيقاً نبياً ، فهو جدير بأن يذكر فيه تنويها بشأنه . .

٤٢ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ . .) الآية .

سلك إبراهيم عليه السلام فى دعوة أبيه إلى ترك عبادة الأصنام أقوم منهاج للنصح والإرشاد ،حيث التزم معه الأدب الحسن ،والتواضع الجم ،والحجة الواضحة ، لئلا يركب متن المكابرة والعناد ، فيعرض عن الاستماع إليه بادىء ذى بدء ، وينكب عن كل طريق قويم يدعوه إلى سلوكه . فقد تقدم إليه فناداه بقوله : «يَا أَبتِ» ليحرّك فيه بهذا النداء الحانى عاطفة الأبوة ، فيستمع إلى استفهامه وهو ينكر عليه عبادة مالا يستحق أن يعبده ، حيث قال : « لِمَ تَعْبُدُ مَالا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ » أى لم تعبد مالا يسمع ثناءك عليه عند عبادتك إياه ، وما تلتمسه منه من جلب نفع أو دفع ضرّ ، ولا يبصر خضوعك له وخشوعك فى حضرته وما تقدمه إليه من صلات وقرابين ، أو لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات ، فيدخل فى ذلك ما ذكر سابقا دخولا أوليا .

(وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا) : أى لا يقدر على أن يجلب لك نفعا أو يدفع عنك ضرا ، فهو بهذا التساؤل يطلب من أبيه الجواب عن علة عبادة هذا الذى يستخف به كل عاقل من عالم أو جاهل ويأبى الركون إليه ، فضلا عن عبادته التى هى الغايةُ البالغة من الإكبار والتعظيم ، وهى لا تحق إلا لمن له الاستغناءُ التام ، والإنعام العامّ ، والخلْق والتكوين ، والإحياءُ والإماتة ، وفى هـــذا تنبيه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لغرض صحيح وإدراك قويم ، فكيف يتخذ غير الله معبودًا وإن علا شأنه ،إذ أنه مثله فى الحاجة والانقياد . فما ظنك بجماد مصنوع ليس له أوصاف الأحياء ، وليس فيه غناءٌ ، إنه إفك وضلال بعيد . .

وبعد أن بين له فى رفق وحكمة ضلاله الكبير بعبادة الأصنام ، دعاه إلى الحق المبين والعلم الإلهى الذى آتاه الله إياه ، ملتزما معه أسلوب الاستمالة والاستعطاف فقال :

٤٣ - (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى . .) الآية .

لم يصف أباه بالجهل المفرط ، وإن كان قد بلغ فيه الغاية ، ولا وصف نفسه بالعلم الفائق الذى منحه الله إياه فهو نبىٌّ مرسل ، بل جعل نفسه معه فى صورة رفيق يصاحبه ويخلص له ، حتى يستميله إلى ما يدعوه إليه ، فيسير إلى جانبه فى طريق الهدى والرشاد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا) : أى فاتبعنى إلى ما أدعوك إليه ، أرشدك إلى دين قويم يوصلك إلى أسنى المطالب ويبعدك عن الضلال المؤدى إلى أفدح المعاطب . .

والظاهر أن هذه المحاورة كانت بعد أن نُبِّىءَ ، بدليل قوله : « جَآءَنِى من الْعلم مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى جاءنى العلم بما يجب فى حقه تعالى وما يمتنع وما يجوز ، على أتمّ وجهٍ وأكمله . وقيل العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها . وقيل بما يعم ذلك . وهو الأنسب . . . . وقد واصل إبراهيم نصحه لأبيه فقال :

٤٤ - (يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . .) الآية .

وهنا ثبطه عما كان عليه . بتصوير صنيعه بصورة يستنكرها كل عاقل . وذلك .

ما حكاه الله سبحانه بقوله : « لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ » أى لا تطع الشيطان فى عبادتك هذه الأصنام التى عكفت عليها ، فإنه هو الداعى إلى ذلك يغريك به ، ويدفعك إليه ، ومن أطاعه فى معصية الله فقد عبده .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا) : تعليل للنهى عن عبادة الشيطان وتأكيد له ببيان أنه لا يَعْرف للرحمن حقا ، فلهذا كان له عصيًا ، أى كثير العصيان حين لم يمتثل أمر ربه بالسجود لآدم ، ثم حرضه على معصية ربه بالأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، حتى تسبب فى إخراجه من الجنة ، وكل من هو عاصٍ حقيق بأن ينتقم الله منه .

والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته ، لأنه أكثر قبحا ، أو لأنه مترتب على معاداته لآدم عليه السلام وذريته ، فتذكير أبيه بذلك داع إلى الاحتراز عن طاعته وموالاته ، والتعبير بلفظ الرحمن مشير إلى الإنعام والرحمة منه تعالى والشناعة البالغة من الشيطان لعصيانه للرحمن سبحانه ، إذ أن رحمته تستوجب طاعته جل وعلا . . .

٤٥ ـ (يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ . .) الآية.

لا يزال الحديث متصلا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه ، فإنه فى هذه الآية يحذره عاقبة عبادته للشيطان من العذاب الفظيع ، وهو فى تحذيره إياه يبرز له ما يشير إلى مزيد من المجاملة له والاعتناء به . حيث بين أنه مدفوع لذلك النصح بدافع الخوف عليه مما يُبْتلى به ،مع مراعاة الأدب معه حيثلم يصرح له بأن العذاب لا صق به ، والعقاب واقع عليه بل قال : إنى أخشى أن يمسك عذاب من الرحمن .

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وليّاً) :أى قرينا له ومصاحبا إياه فى العذاب الأليم ،واللعن الدائم . ومواجهتُهُ بولاية الشيطان التى يترتب عليها مَسُّ العذاب الشديد مع أن المقام معه مقام إظهار الشفقة عليه . لأن القسوة أحيانا تكون من الرحمة والشفقة كما قال الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يكُ حازماً   فَلْيَقْسُ أحيْاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

٤٦ ـ (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَآ إِبْرَاهِيمُ . .) الآية .

تمادى أبو ابراهيم فى عناده وإصراره على كفره فقال : «أَراغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَآإِبْرَاهِيمُ » حيث توجه إلى إبراهيم عليه السلام باستفهام يستنكر به رغبته عن آلهته وانصرافه عنها . مع ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها فى تقديره مما لاينبغى أن يصدر عن العاقل : فكيف بمن يعمل مع ذلك جاهدا على ترغيب غيره عنها ! ثم قال له محذرا و متوعدا :

(لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) : أى لئن لم تترك ما أنت عليه من النهى عن عبادتها ، والدعوة إلى ما دعوتنى إليه من التوحيد . لأرجمنّك بالحجارة ، على ما روى عن الحسن . وقيل باللسان والمراد لأشتمنّك وروى ذلك عن ابن عباس . . .

(وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا) : أى وابتعد عنى بهجر جوارى دهراً طويلا . حتى لا يقع بك ما حذرتك منه . وقال على بن طلحة وغيره عن ابن عباس : « وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » ـ قال : سالما سويا قبل أن تصيبك منى عقوبة ، واختاره ابن جرير الطبرى : انظر ابن كثير . .

٤٧ ـ (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى . . .) الآية .

لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بما يسوءُ إليه ردعا له ، بل أجابه بما عوّده إياه من احتمال له ، وتلطف به ، ومقابلة للسَّيئة بالحسنة ، فقال له : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » أى أمان واطمئنان

فلا أجيبك بمكروه ، ولا أشافهك بما يؤذيك . فهو سلام توديع ومفارقة أو تقريب وملاطفة ، ولذا وعد أباه فى الآية بالاستغفار . ومن قال إن سلامه على أبيه كان تحية مفارق ، فهذا على رأى من يجوز تحية الكافر بدءا أو إجابةً. قيل لابن عيينة هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال نعم ، قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ [1] » الآية . « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » بمعنى أنى سأطلب منه متضرعا إليه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ، ويهديك إلى الصراط المستقيم فيكون استغفاره له مرادا منه طلب الهداية له ، والاستغفار للكافر بهذا المعنى جائز قبل موته على الكفر أو تحقق أنه لن يؤمن وكان هذا الاستغفار لأبيه على هذا النحو ناشئا عن موعدة وعدها آزر إبراهيم عليه السلام بأن يؤمن بما جاءه به فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدوّ لله تبرّأ منه كما قال تعالى : « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » [2] .وقد استغفر له مدة طويلة قبل انقطاع رجائه فى إيمانه ،كما تشير إلى ذلك هذه الآية وغيرها من الآيات التى تشتمل على قصته كقوله تعالى : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » [3] .

(إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) : أى بليغا فى البر بى والإكرام لى ، فلهذا أرجو أن يجيبنى إذا دعوته . .

٤٨ – (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله حفاظا على دينى ، حيث لم ينفعكم ما قدمته لكم من نصح وإرشاد (وَأَدْعُو رَبِّى) : وأتجه إليه وحده بعبادتى ، كما يفهم من اجتناب غيره من المعبودات ، والمراد من الدعاء العبادة . وجوز أن يراد به الدعاء مطلقا ، فتدخل فيه العبادة لما فيها من الدعاء ، ولا يبعد أن يريد بدعائه ربه أن يطلب منه الولد ، كما فى قوله تعالى : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ » .

(عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا) : خائبا ضائع السعى عديم الأثر ، وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم ولفظ عسى يستعمل للترجّى ، ولكنها هنا تفيد القطع بعدم

(١) سورة الممتحنة ، من الآية : ٨ (٢) سورة التوبة ، من الآية : ١١٤

(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٤١

شقائه بدعائه ربه ، لأنَّ من يدعو الله لا يكون شقيا ، ولأن إبراهيم عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون شقيا بدعاء ربه ، ويحمل التعبير بها على التواضع وحسن الأدب ، والتنبيه على أن الإثابة والإجابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير. أفاد هذا روح المعانى...

٤٩ - (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى فلما ترك ديار أبيه وقومه مهاجرًا إلى الشام ، أبْدَ لَهُ الله من هو خير منهم ، كما قال سبحانه : (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) : عن ابن عباس وغيره : آنسنا وحشته بولد اهـ .

ونص هنا على أن الموهوب له بعد الهجرة هو إسحاق وابنه يعقوب ، لأنهما هما اللذان ولدا بالشام التى اعتزلهم إليها ، وكانا من ذرية «سارة» وهذا لا يمنع من أنه وهب له قبل ذلك إسماعيل ، فهو ابنه البكر من جاريته «هاجر» ، ويدل لذلك قوله تعالى : « أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ »[1] . كما يدل له التبشير بإسحٰق عقب قصة الذبيح مكافأة له على شروعه فى ذبحه بعد أن أُمِرَ به فى منامه ، قال تعالى فى سورة الصافات : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »[2] .

ولعل ترتب هبة إسحٰق ويعقوب فحسب على اعتزاله لقومه لإبراز كمال النعمة التى أعطاها الله إياه ، لما خصهما به من أولاد وحفدة أولى شأن خطير وذوى عدد وفير ، وهما شجرتا الأنبياء الكثيرين ، من عرف منهم ومن لم يعرف (وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) : أى وكل واحد من إسحٰق ويعقوب وهبه الله النبوة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، فأقر الله عينه بنبوة ابنه وحفيده قبل وفاته ، بعد أن حقق له بشارة ملائكته بميلاد إسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب فى حياته مع كبر سنه وعقم زوجته .

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا) : والمقصود بالرحمة التى وهب لهم كل خير دينىّ ودنيوىّ أوتوه . وقال الحسن : الرحمة النبوة . وذكرت بعد جعلهم أنبياء للإيذان بأن النبوة

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٣٣ (٢) سورة الصافات ، الآية : ١١٢

من الرحمة التي يختص بها من يشاء. وقال الكلبي : الرحمة المال والولد ،والرأى الأول أشمل وأعم .

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) : أى أثنينا عليهم ثناء حسنًا ، وجعلنا جميع الأُمم والملل تطريهم مهما تباعدت الأعصار ، وتعاقبت الأزمنة . وإضافة لسان إلى صدق ووصفه بقوله : « عليًّا » للدلالة على أنهم حقيقون بالثناء عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على أحد ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : المراد به هنا القرآن كما تقدم .

(مُخْلَصًا) : مختارًا ، أى أخلصه الله واختاره .

(رَسُولًا نَّبِيًّا) : رفيع القدر من النَّبْوَة بمعنى العلو والرفعة أو من النبإ وهو الخبر .

(وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) : مناجيًا من المناجاة وهى المسارَّة بالكلام .

التفسير

٥١ - (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا . . .) الآية .

لما أمر الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يذكر لقومه قصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن تعظيمًا لشأنه وبيانًا لجهاده فى توحيد ربه ، عطف عليها أمره إياه بذكر نبإ الكليم عليه السلام بيانًا لقدره وثناء عليه .

والمعنى : واذكر أيها الرسول فى القرآن موسى تعظيمًا لشأنه فإنه كان مُخْلَصاً من كل ما يشينه ، وقرىء بكسر اللام بمعنى أنه أخلص لله عبادته - حتى كانت منزهة عن الشرك والرياء .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا): مرسلًا إلى الخلق لتبليغ رسالة ربه وأحكام دينه ، كما كان رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه ، حيث اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ، وجعله نبيًّا لقومه ، يخبرهم برسالته وما اشتملت عليه من التوحيد والشرائع .

وقد جمع له بين الوصفين : الرسالة والنبوة ، وهو تشريف له عظيم .

٥٢ - (وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا . . .) :

أى كان النداءُ مقبلًا من جانب الطور الأيمن لموسى عليه السلام ، والطور الذى حصل النداءُ من جانبه ، جبل فى سيناء التابعة للقطر المصرى ، ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن والبركة ، فيكون وصفًا لجانب ، أى من جانبه الميمون المبارك ، وكان موسى عائدًا من مدين إلى مصر ومعه زوجته بنت شعيب ، ومن تلك الجهة التى على يمينه أو الميمونة ظهر له كلام الله تعالى الذى ناداه به ، وقربه بسببه تقريب تكريم وتشريف ، حيث اختاره لمناجاته ومسارَّته . مثَّل حاله عليه السلام ، بحال من قرَّبه الملك لمناجاته ، ورفع الوسائط بينه وبينه ثقة به وإعلاءً لقدره ، فالتقريب معنوى لا حسِّى ، تعالى الله عن الحلول بمكان وعن الجسدية والقرب المكانى « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] .

٥٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا . . .) :

المعنى : من أجل رأفتنا بموسى عليه السلام ، ورعايتنا لشأنه ، وهبنا له مساعدة أخيه هارون ومؤازرته ، استجابة لدعوته التى طلبها بقوله : « وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى هَٰرُونَ أَخِى »[2] . ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هٰرون أن يكون نبيًّا . ذكره ابن كثير .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١

(٢) سورة طه ، الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾)

التفسير

٥٤ - (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ . . .) الآية .

الذى ذهب إليه الجمهور ، أنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو الحق ، وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، بذكر موسى عليهم السلام ، لإبراز كمال العناية بأمره ثناء عليه بأشرف الخلال التى أشار إليها قوله سبحانه : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) .

وهذه الجملة تعليل لإيجاب الأمر بذكره فى الكتاب ، ووصف عليه السلام بأنه كان صادق الوعد لكمال شهرته به ببلوغه درجة من الوفاء لم تعهد من غيره ، ولا أدلّ على ذلك من أنه وَعَدَ بالصبر على الذبح بقوله : « سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[1] ، فوفّى وصدق ،وقيل لم يَعِدْ ربه موعدًا إلَّا أنجزه وإنما خصه الله بالوعد الصادق ، وإن كان ذلك موجودًا فى غيره من الأنبياء تشريفًا له وإشارة إلى أنه بلغ فيه الغاية العظمى .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) : أى كان رسولًا إلى قبيلة جرهم على شريعة أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فإن أولاد إبراهيم جميعًا كانوا على شريعته . وكان « نَبِيًّا » يخبرهم بتلك الشريعة مع تبشير الطائعين وإنذار المفرطين ، والجمع لإسماعيل بين وصفى الرسالة والنبوة إشارة إلى عظيم مكانته عند الله ، وقد دلت الآية على أنه لا يشترط فى الرسول أن يكون صاحب رسالة خاصة وشريعة مستقلة ، فقد بعث إسماعيل بشريعة أبيه إبراهيم إلى جرهم ، ولعل ذلك بسبب معاصرته لأبيه إبراهيم ، وأن إبراهيم لم يكن رسولًا مباشرا لجُرْهم والله أعلم .

---

(١) سورة الصافات ، الآية : ١٠٢

٥٥ - (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ . . .) الآية .

هذا أيضًا من الثناء الجميل على إسماعيل عليه الصلاة والسلام لأنه كان يأمر عشيرته وذوى قرباه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمثابرة وبذل الجهد اشتغالًا منه بالأهم ، وهو أن يبدأ بتكميلهم بعد تكميل نفسه ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »[1] وقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »[2] ولا شك أن الأنبياء وأهليهم قدوة لأممهم ، فلهذا كان معنيًا بتكميل نفسه وأسرته ، والمراد بالصلاة والزكاة معناهما المعروف ،فالصلاة إشارة إلى العبادة اليومية والزكاة إشارة إلى العبادة المالية . وقيل : المراد بالزكاة مطلق الصدقة ،وقيل تزكية النفس وتطهيرها .

(وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) : لاتصافه بأكمل النعوت وأشرفها ، حيث استقامت أقواله وأفعاله ، فكان عند ربه موضع الرضا والتكريم .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(وَاجْتَبَيْنَا) : واصطفينا. (خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : خر الشيء سقط وهو من باب ضرب والمراد بخرورهم سجدا :وضع جباههم على الأرض.وسجدا ،جمع ساجد ؛ وبكيا ؛ جمع باك .

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ (٢) سورة التحريم ، الآية : ٦

التفسير

٥٦ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ . . .) الآية .

إدريس عليه السلام اسمه أعجمى وليس مشتقا من الدرس لأن الاشتقاق من غير العربى لم يقل به أحد ، وهو أول من نظر فى النجوم والحساب وجعل الله ذلك من معجزاته كما فى البحر ، كما قيل إنه أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، فكان أول مرسل من بنى آدم .

ولكن هذه التفاصيل لم ترد فى السنة النبوية ، والله أعلم بصحتها ، وحسبنا فى أمره قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً) : أى ملازما للصدق فى كل أمر من أموره متصفاً بالنبوة تتويجا لصدقه الكامل .

٥٧ - (ورَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) : هوالنبوة والزلفى عند الله تعالى لأنه كان صوَّاما قوَّاما ، يعبد الله ويكثر عبادته ، وقيل المكان العلى الجنة كما روى عن الحسن ، ولا شىء أعلى من الجنة . . وقد صح فى حديث المعراج أنه صلى الله عليه وسلم رآه فى السماء الرابعة وأنه رحب به ودعا له بخير ، وعلى هذا يكون المراد من المكان العلى السماء الرابعة ، وقيل الذكر الجميل فى الدنيا وعلو المرتبة .

٥٨ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ . .) الآية .

إشارة إلى الأنبياء المذكورين فى السورة الكريمة ، والإتيان بإشارة البعيد (أولئك) للتنبيه إلى علو مراتبهم . وبعد منازلهم فى الفضل والشرف بما أنعم عليهم سبحانه من عظيم النعم الدينية والدنيوية .

(وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) : أى وممن هديناهم إلى الحق ، وشرّفناهم بالنبوة والكرامة .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذى عنى به ممن حملنا مع نوح إبراهيم ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم ، إسحق ويعقوب وإسماعيل والذى من ذرية إسرائيل[1] ، موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم .

قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس ، فإنه كما قيل كان جَدَّ نوح عليه السلام ، وقال القرطبى هذا خطأ .

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : أى إذا سمعوا كلام الله المشتمل على حججه وبراهينه أسرعوا ساجدين لربهم خضوعاً وخشوعاً واستكانة - تلهج ألسنتهم بشكره وحمده على ما وهبهم من نعم سابغة . وآلاء عظيمة ، تذرف أعينهم دموع المهابة منه . فلا ترى أحدا منهم إلا باكيا شعورا منه بالعجز عن تقدير حقه عليه كما ينبغى له ، مهما قدم من عمل وبذل من جهد ، تلك صفوة مختارة تعلقت نفوسهم بجلاله وامتلأت قلوبهم بهيبته والإذعان له . « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . . .

(۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(خَلْفٌ) : الخلْف ، بسكون اللام : الولد الطالح الشرير ، والْخَلَف ؛ بفتح اللام وسكونها الولد الصالح أو من يأتى بعد مطلقًا ، أو البدل . (غَيًّا) : الغى ؛ الضلال والهلاك أو السوء .

(١) إسرائيل هو يعقوب .

٥٩ ـ (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ . . .) الآية .

أى فجاء من بعد هؤلاء الأنبياء وهم المثل العليا فى التقوى والصلاح والمحافظة على أداء الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان حافلة بالخشوع والخضوع ـ جاء من بعدهم طائفة مفطورة على الشر مستمسكة به بعيدة عن التقوى والصلاح ، متهاونة فى أداء الصلاة فى أوقاتها أو تاركة لها أو لبعض أركانها ، أو مغيرة لصورتها المشروعة ، واتبعوا فى دينهم وسلوكهم شهواتهم . (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) : فسوف يجدون فى الآخرة ، ضلالًا عن طريق الجنة ، وعذابًا سيئًا فى جهنم « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ثم فتح باب الأمل للتائبين فقال سبحانه :

٦٠ ـ (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) .

أى أن الذين خلفوا الأنبياء بما يناقض عقائدهم وأعمالهم سيلقون جزاء انحرافهم غيًّا أى ضلالًا وسوء عاقبة ، لكن من رجع إلى الله وتاب عن غوايته وأناب إلى ربه وآمن به إيمانًا صادقًا وعمل عملًا صالحًا فأولئك التائبون المؤمنون الصالحون يدخلهم الله الجنة ولا يعاقبهم بما أسرفوا على أنفسهم فإن الإيمان الصادق يَجُبُّ ما قبله من السيئات ، والتوبة تمحو الحوبة ، ورحمة ربى وسعت كل شىء ، قال تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ »[1] .

(١) سورة الزمر ، الآيتين : ٥٣ ، ٥٤

(جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : جنات إقامة وثبات واستقرار .

(بِالْغَيْبِ) : الغيب ما غاب عن المشاعر .

(مأْتِيًّا) : يأتيه من وعد به لا محالة ، وقيل : (مأْتِيًّا) مفعول بمعنى فاعل أى آتيا .

(لَغْوًا) : اللغو العبث أو الضلال أو ما لا فائدة فيه من القول والعمل .

(بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : البكرة أول النهار إلى طلوع الشمس ، والعشى من الزوال إلى غروب الشمس ، والمراد : أن رزقهم دائم ، لأنه لابكرة ولاعشى فى الجنة .

التفسير

٦١ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) :

انتقلت الآيات إلى وصف الجنة التى وعد الله بها التائبين ، وقدجاء فى وصفها هنا أنها جنات عدن ، أى جنات إقامة واستقرار وثبات ، والله لا يخلف وعده ، فإن وعده آت لامحالة ، «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا»[1].

(١) النساء ، الآية : ٨٧

٦٢ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

ومن صفات هذه الجنات أنها خالية من العبث والفحش والضلال وما لا فائدة فيه فلا يسمعون فيها ما يعكر عليهم صفاءهم وإنما يسمعون فيها التحية وأحاديث السلام ، ويتمتعون فيها بالرزق الطيب المتاح لهم دائما ، جزاءً لما قدموا من توبة وإيمان وأعمال صالحات فى دنياهم .

٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) :

هذا شروع فى تعظيم الجنة وبيان من يستحقونها ، والمعنى أن هذه الجنة أعدها الله لمن كان تقيًّا يخشى الله ويبادر بالتوبة إذا أذنب ويستمسك بالإيمان والعمل الصالح ، والتعبير عن استحقاق الجنة بميراثها للإيذان بكمال استحقاقها ، بما يشبه الميراث فى القوة والثبوت .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(نَتَنَزَّلُ) : نهبط . (مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) : ما نستقبله من الشئون المختلفة .

(وَمَا خَلْفَنَا) : ما تركناه خلفنا منها . (نَسِيًّا) : كثير النسيان . (سَمِيًّا) : شبيهًا ومثيلًا .

التفسير

٦٤ - (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) :

هذا القول إما أن يكون من الأتقياء الذين ورثوا الجنة ، فيكون المعنى أنهم ما يتنزلون إلى وراثة الجنة إلَّا بفضل الله الذى له ما بين أيديهم من شئون الآخرة ، وما تركوه وراءهم من أمور الدنيا وما بين ذلك من شئون البرزخ ، فهو المهيمن عليهم فى الدنيا والآخرة ، وإما أن يكون من كلام جبريل عليه السلام بأمر ربه ، يحكيه عنه القرآن الكريم ، فقد أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وجماعة عن ابن عباس فى سببه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه الصلاة والسلام : (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ »). والمعنى على هذا - وما ننزل إليك أو إلى شأن من شئون الملكوت برغبتنا ، وإنما ننزل بأمر ربك تنفيذًا لمشيئته ، فإن زمام جميع الأمور بيد الله وحده فهو المالك لما بين أيدينا من أمر المستقبل وهو المسيطر على ما خلفنا من شئون الماضى وما هو كائن بين الماضى والمستقبل من الحاضر ، وهو الذى يصرفنا بما يشاءُ كيف شاء مما تقتضيه حكمته الإلٰهية ، وهو سبحانه منزَّه عن السهو والنسيان فلن يغفل عنك فإنه ربك المنعم المتفضل الذى منَّ عليك برسالته .

٦٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) :

أى أنه سبحانه رب الكائنات جميعها من سموات وأرضين وما بينهما من القوى والعوالم الكونية ، فهو سبحانه الخالق المدبر فكيف ينساك أو ينسى سواك « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .(١)

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) : وبما أنه هو الخالق المدبر المسيطر على الزمان والمكان ، فتوجه أنت وأمتك إليه وحده بالعبادة واصبر على ما تقتضيه العبادة من جهود وتكاليف كما قال سبحانه : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »(٢) .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) : أى أنك يا محمد لا تعلم له سبحانه مشاركًا فى اسم الربوبية للسموات والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه لا شريك له فى ذلك مطلقًا ، ومن كان كذلك وجب إفراده بالعبادة والصبر عليها .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ (٢) سورة طه ، الآية : ١٣٢

(وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(شِيعَةٍ) : جماعة متقاربة مشتركة فى الميول .

(عِتِيًّا) : طغيانًا وعصيانًا .

(صِلِيًّا) : احتراقًا .

التفسير

٦٦ـ (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) :

القائل هنا أُبَىُّ بن خلف وقيل الوليد بن المغيرة ، وسواءٌ صح هذا أو ذاك سببًا لنزول الآية ، فهى عامة فى كل منكر للبعث والنشور ، أو شاك فى أن يعود حيًّا بعد أن تبلى عظامه فيقول هذا منكرًا أو متعجبًا ـ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٧ـ (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) :

كرر ذكر الإنسان فى التذكير بالبعث ، لأنه يتميز بالعقل وكان عليه أن يتذكر أن الله سبحانه خلقه من العدم وأنه برز إلى الحياة بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، كما قال سبحانه

لعبده ورسوله زكريا : «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا»[١] . فالذى خلق الإنسان ولم يكن شيئا يذكر قادر على إعادته بعد الموت وقد أصبح شيئا «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»[٢] .

والمعروف لدى الإنسان أن الإعادة أهون من البدء كما قال سبحانه : «وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ»[٣] .

واعلم أن البدء والإعادة سواء عند الله فى اليسر والسهولة ، فإنه سبحانه يقول للشىء كن فيكون ، ولكن الله يخاطب عباده بما اعتادوا من أن الإعادة أهون عليهم من البدء ، فكيف يستبعدون البعث على الله ، وهو إعادة بعد بداية .

٦٨ - (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) :

أقسم الله سبحانه بربوبيته مؤكدًا بعثهم بعد الموت وحشرهم إلى موقف الحساب وكل منهم مقرون بشيطانه الذى صرفه عن عبادة الله ، وجذبه إلى اتباع أهوائه وشهواته فينال كل منهما جزاءه العادل .

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) : ثم لنحضرنهم بعد الحشر والحساب إلى جهنم ليشهدوا مصيرهم المحتوم وليرى المؤمنون عاقبة الكفار وجزاءهم الرهيب وهم باركون على ركبهم ، كما قال تعالى : «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»[٤] .

٦٩ - (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا) :

ثم لنخرجن للعذاب أشدهم عتوًا وطغيانًا وتمرداً على الرحمن الرحيم ، المنعم على الجميع بالخير والفضل العظيم ، ويستمر نزع أعتاهم فأعتاهم ، إلى أن يحاط بهم ، فإذا اجتمعوا

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٩

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٩

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٤) سورة الجاثية ، الآية : ٢٨

طرحناهم فى النار على الترتيب ، فنقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم . قال ابن مسعود فى تفسير الآية : يحبس الأول على الآخر ، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا : ا هـ

وذلك قوله تعالى :

٧٠ـ (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) :

ثم لنحن نعلم أكمل العلم ، ونعرف أوسع المعرفة من هو أشد استحقاقًا للاحتراق بنار جهنم منهم ، ولقد سجلنا عليهم جميع أعمالهم فى كتاب : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا »[1] لتكون حجة عليهم .

(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(وَارِدُهَا) : داخلها أو مار عليها .

(حَتْمًا مَّقْضِيًّا) : قضاء نافذًا مبرمًا .

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(مَقَامًا) : المراد بالمقام الإقامة أو موضعها

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٩

(وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) : الندى موضع اجتماع القوم ومكان حديثهم ، فإن تفرقوا فليس بندى قاله الجوهرى : وهم يريدون بكونهم أحسن نديًّا ، أنهم فى الآخرة فى أحسن مكان حيث يجتمعون فى الآخرة فى نَدِيِّهِمْ على فرض البعث والنشور .

التفسير

٧١ - (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا) .

روى الحاكم وأحمد وابن ماجه بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم بردا وسلاما حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم) « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » . وفى هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فيما رواه الشيخان : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القَسَم) والمراد تقليل زمان المس ، والمقصود من القسم ما يفيده قوله سبحانه : « وإن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا... » الآية . فهو فى حكم القسم فى التأكيد ، وقد أفادت الآية أن كل إنسان يرد على النار فينجو المؤمن منها ، ويبقى الكفار فيعرف المؤمن منة الله عليه بنجاته من هذا المصير الرهيب .

٧٢ - (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) :

ثم نكتب النجاة للمتقين وندع الظالمين جاثمين فى نار جهنم .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن الجميع يمرون على الصراط فيجوزه المؤمنون ويتساقط الظالمون فى جهنم ، معتمدين على ما رواه مسلم فى صحيحه : ثم يضرب الجسر على جهنم وهو دحضٌ[1] مَزَلَّة[2] ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكٌ... فيمر المؤمنون كطرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسلَّم ، ومخْدُوش مُرْسلٌ ، ومكدوس فى نار جهنم[3] .

---

(١) الدحض: الزلق .

(٢) والمزلة: موضع الزل وهو السقوط .

(٣) أى ملقى فى جهنم مجتمع فيها مع من سبقه .

ويذهب بعض آخر من المفسرين إلى أن المؤمن يرد على النار فى الدنيا ، بأن تصيبه الحمى لأنها من فيح جهنم ، كما ورد فى الحديث الشريف، روى أحمد والحاكم وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم زار مريضاً بالحمّى فقال له : « أَبْشِرْ فإنَّ الله تعالى يقول : هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا لتكون حظه من النار يوم القيامة » وروى البزار عنه صلى الله عليه وسلم : « الحُمَّى حَظُّ أُمَّتِى مِنْ جَهَنَّم » .

٧٣ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) :

أى أن من أسباب بقاء الظالمين فى جَهَنَّم جثيا ، أنهم اغترُّوا بالدنيا وفضلوا أنفسهم على المؤمنين بما نالوه من حظوظها ، وانصرفوا عن سماع آيات الله الواضحة البينة القوية المعجزة قائلين : ما بالُنا إنْ كنا على باطِل - أكثرُ أموالا وأعزُّ نفرًا «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[1] . قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى. . . »[2] .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾)

(١) وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين ، وإيهامهم أن من كثر ماله فهو المحق فى دينه .

(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٣٥ - ٣٧

المفـردات :

(مِن قَرْنٍ) : القرن ؛ مائة سنة وقد يطلق على أهله .

(أَثَاثًا) : الأثاث ؛ المتاع الذى تؤثث به المساكن للانتفاع أو الزينة .

(وَرِئْيًا) : الرئى : المنظر الحسن والمظهر الجميل .

(فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ) : فليمهله وليطل عمره ، وليزد فى رزقه ، استدراجًا له من الله سبحانه إلى حين .

(مَرَدًّا) : عاقبة .

التفسـير

٧٤- (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا) :

أى وكثير من أهل القرون السابقة أهلكناهم ، وكانوا أحسن أثاثًا ومنظرًا من أهل مكة ، فليست بسطة الرزق وعلو المنزلة ووفرة القوة فى الدنيا بالدليل على رضا الله والفوز بمحبته ، فقد تكون هذه النعم استدراجًا من الله لهؤلاء المكذبين الضالين قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »[1]. فكونهم أحسن متاعًا ومنزلة وأجمل مظهرًا ، ليس بدليل على أنهم أفضل من المسلمين مكانًا عند الله فَرُبَّ جماعة ضعيفة القوة قليلة الرزق أقرب إلى الله وأفضل عنده منزلة من سواها من الجماعات الفتية القوية ، روى مسلم وأحمد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث مدْفُوعٌ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » .

٧٥- (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا) :

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٨٢ ، ١٨٣

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المدعين أنهم على الحق بما هم عليه من قوة ومال ، وأنكم على الباطل بما أنتم عليه من ضعف وفقر ، من كان منكم فى الضلالة ، فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، فسيعلمون حين يروْن العذاب أو الساعة من هو شر مكانًا عند الله وأضعف جندًا مِنْ سواه ، أهم هؤلاء المؤمنون الضعفاءُ الفقراءُ أم أُولئك المشركون الأَقوياءُ الأَغنياءُ ؟ .

٧٦ـ ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . . . ﴾ الآية .

لما أخبر الله سبحانه أنه سيمد للظالمين فى ضلالهم استدراجًا لهم حتى يبغتهم بالعذاب أو بقيام الساعة ، أخبر فى مقابل هذا أنه يزيد المهتدين فى هدايتهم ويوفقهم ويعينهم على أداء الأَعمال الصالحة الباقية ، فهى أفضل من بسطة الرزق وسعة الجاه والقوة والبأْس الذى استدرج الله به الضالين ، ليزدادوا إثمًا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم . «حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ»[1]

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ : وإذا كان المال والجاه والقوة فتنة لهؤلاء الضَّالِّين ، فَإِنَّ الأَعمال الطيبة أفضل عند الله منزلة وأكرم مكانًا وأعظم أجرًا ، وأبقى أثرًا ، فهى الباقيات الصالحات . وقد فسَّرها ابن عباس بالصلوات الخمس ، وقيل الباقيات الصالحات : الإكثار من ذكر الله والثناء عليه بما ألهمنا إيَّاه ، روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (... أَلَا إِنَّ سُبْحَانَ اللهِ والْحَمْدُ للهِ ولَا إِلٰه إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبر هُنَّ الْباقِياتُ الصَّالِحات) وبالجملة فالإكثار من الأَعمال الصالحات وترطيب اللسان بذكر الله أفضل عند الله وأدعى إلى قربِهِ وأكرم لديه ممـا ينغمس فيه الضَّالون من ترف ونعيم وأحسن عاقبة عنده .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٤٤

(أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) : أشاهد أمور الآخرة الغائبة عنه .

(عَهْدًا) : ميثاقا .

التفسير

٧٧ - (أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) :

ذكر الشيخان أن هذه الآية وما بعدها نزلت فى العاص بن وائل ، روى مسلم فى صحيحه بسنده عن خباب بن الأرَتِّ الصحابى الجليل قال : كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه ، فقال لى لن أقضيك حتى تكفر بمحمد ، قال : فقلت : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث : قال : وإنى لمبعوث بعد الموت ؟ فإذا مت ثم بُعثتُ جئتَنى ولى ثَمَّ مالٌ ولى ولد فأُعطيك . فأنزل الله : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » . إلى قوله : « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » .

فالعاص يتهكم بعقيدة البعث والنشور ويرجئ سداد دينه إلى هذا الموعد .

والاستفهام فى الآية للتعجيب والإنكار على العاص الذى يؤكد أنه سيكون صاحب مال وولد فى الآخرة وفى الدنيا .

٧٨ـ (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) :

أى هل انكشف الغيب أمامه فاطلع على حالته فى الآخرة ، أم أخذ على الله موثقًا أن يغمره بفضله فى الآخرة كما غمره فى الدنيا .

٧٩ ـ (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) :

هذا رد على العاص بأسلوب الردع والتكذيب له فإنه لم يطلع على الغيب ولم يتخذ على الله عهدًا ، والمعنى أننا سنسجل عليه هذا الضلال فى سيئاته لنحاسبه عليه حسابًا عسيرًا أو نزيده عذابًا فوق عذاب .

٨٠ـ (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) :

أى أنه سيموت ويغادر الدنيا ونرث أمواله وأولاده ، ولن ينال فى الآخرة إلا العذاب الأليم فإنه سيبعث يوم القيامة فردًا مجردًا من الأموال والأولاد « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »(١) .

(وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(ضِدًّا) : أعداء متعاونين عليهم فى خصومتهم وتكذيبهم .

التفسير

٨١ ـ (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) :

اصطنع هؤلاء الكفار لهم آلهة غير الله ظانين أن هذه الأصنام ستكون مصدر عزة وقوة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

٨٢ – (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) :

كلا : كلمة زجر وردع لهم عما توهموه من كونها عزا لهم ، وقد أتبعه ببيان أن هذه المعبودات مصدر عداء وتكذيب لهم فيما ادعوه من ألوهيتهم ، وسبب عذاب ونقمة عليهم ، كما قال تعالى : « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »[1] .

ويجوز أن يكون الضمير المرفوع فى قوله تعالى : « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » عائدا على المشركين ، أى أن المشركين بعد البعث سيدركون أنهم كانوا على ضلال فيكفرون بعبادة آلهتهم حيث لا يجديهم ذلك نفعاً .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) : تدفعهم دفعا . (وَفْدًا) : جماعة .

(وِرْدًا) : قوما عطاشا واردين على جهنم ، كالبهائم تساق إلى موارد الماء .

التفسير

٨٣ – (أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) :

ألم تعلم يامحمد أنا سخرنا الشياطين على الكفار تدفعهم إلى الكفر دفعا شديدا ابتلاء منا لهم ، فلم يقاوموا هؤلاء الشياطين بل استجابوا لإغرائهم وتحريضهم وانساقوا معهم

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٦

فى الضلال انسياقا ، وشبيه بهذا قوله تعالى : « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »[1]

٨٤ – (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) :

أى فلا تتعجل عليهم وقوع العذاب جزاء عتوهم وجبروتهم فإننا نعدّ لهم أعمالهم ونحسبها عليهم قبل موتهم لنعذبهم بها يوم القيامة قال تعالى : « وَمَا نُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ »[2] .

٨٥ – (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا) :

أى أنه تعالى سيجازى الكافرين على كفرهم حينما يحشر الأتقياء إلى أرحم الراحمين لينعموا بثواب تقواهم ، قال ابن عباس وفدا يعنى ركبانا منعمين غير مجهدين .

٨٦ – (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا) :

وفى هذا اليوم الرهيب نسوق الكفار إلى جهنم حيث يذوقون ألوان العذاب والنكال جزاء كفرهم وطغيانهم فيردون عطاشا مسوقين لا إلى الماء ليشربوا منه ويطفئوا عطشهم ، بل إلى جهنم لتكون مثوى لهم .

٨٧ – (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) :

لايستحقون الشفاعة فلا يشفع لهم أحد ، ولهذا سوف يقولون ماحكاه الله عنهم بقوله : « فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »[3] . لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، فإنه يستحق الشفاعة ، فيؤذن له بشفاعة الشافعين ، وفسر ابن عباس العهد بقوله : العهد شهادة ألا إله إلا الله ، والتبرؤ من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله تعالى . وفسره ابن كثير بقوله : شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣٦

(٢) سورة هود ، الآية : ١٠٤

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١

(وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(إِدًّا) : الإد ؛ المنكر العظم .

(يَتَفَطَّرْنَ) : يتصدَّعن .

(وَلَداً) : الولد كل ما يولد ، ذكرًا كان أَو أُنثى ، واحدا أَو اثنين أَو جماعة .

(أَحْصَاهُمْ) : علم عددهم .

التفسير

٨٨ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً) :

زعموا أَن الله اتخذ ولدا ، فقال المشركون إن الملائكةَ بنات الله ، وزعم اليهود أَن عزيرًا ابن الله ، وزعم النصارى أَن المسيح ابن الله ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨٩ -(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) : أَى لقد جئتم بقولكم هذا شيئاً منكرا باطلا عظيم الفرية على الله - سبحانه - .

٩٠ - (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) :

أى توشك السموات - على تماسكها - أن تتصدع من افترائه على الله ، وأن تنشق الأرض ، وأن تتحطم الجبال وتسقط أجزاؤها ، فإن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه ، وكيف يكون لله ولد ، وهو بغير حاجة إليه ليعينه أو ليرثه كما هو شأن البشر ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، فهو حى لا يموت ، قادر لا يعجزه شىء .

٩١ - (أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا) :

أى تكاد السموات والأرض أن يحدث لها ما ذكر بسبب ادعائهم ولدًا للرحمن ، فإنها فرية على الله لا تتقبلها بل تكذبها بما فيها من الإبداع ، فإنه شاهد بوحدانيته وتمام قدرته وعدم حاجته إلى اتخاذ ولد يعينه « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

٩٢ - (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) :

ولا يليق بكمال الله وعظمته أن يكون له ولد ، فإن الوالد يتخذ الولد ليكون عونا له فى شيخوخته وضعفه أو ليكون امتداداً لحياته حين تنتهى حياته والله سبحانه غنى عن هذا كله « مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[1]

٩٣ - (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) :

أى ليس فى السموات والأرض إلا عبدًا لله سبحانه ، وسيأتون بوصف العبودية يوم القيامة مهما كان شأنهم ، وسيحاسبهم على ما قدموه من خير وشر ، فكيف يزعم الزاعمون أن له ولدا « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » .

٩٤ - (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) :

لقد حصرهم وأحاط بهم علما ، وعدهم عدًا ، وأحصى عليهم أعمالهم وأفكارهم وأنفاسهم ، فلا حاجة به إلى ولد يعينه .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٥

٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً) :

وكل منهم سيموت ويبلى ثم يبعثه الله ويحشره إليه منفردا وحيدا ، دون معين أو نصير سواءٌ منهم من كان عابدا أو معبودا ، أو من زعموه لله ولدا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(وُدًّا) : محبة .

(لُدًّا) : اللد ؛ جمع الألد وهو الخصم الشديد الخصومة الْمُلِحُّ فى عداوته المجادل بالباطل أو الظالم أو الفاجر

(رِكْزاً) : الركز ؛ الصوت الخفى .

التفسير

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه أحوال الطغاة العتاة ومصيرهم الأليم ذكر فى مقابلهم هنا المؤمنين وما أعده لهم من الحب وآثاره فى الدنيا والآخرة . والمعنى أن المؤمنين الذين يحملهم إيمانهم على أداء الأعمال الصالحة سيجعل لهم الرحمن الرحيم مودة فى قلوب الناس وعند الملائكة ،

ومن أجلِّ نعم الله على عبده أن يمنحه حبه وحب عباده فى السموات والأرض . روى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم: « إذا أَحبَّ الله عَبداً نادَى جِبْريلَ إنَّ الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل ، فينادى جبريل فى أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللهَ يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فى الأَرض » . ويجوز أن يكون المقصود من حب الله المؤمن الذى يعمل الصالحات أن يكافئه على هذا بما يستحقه من الثواب .

٩٧ – (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا) :

والمعنى : يا محمد إنا أنزلنا عليك كتابنا بلغتك العربية وجعلناه ميسَّرا للسامعين والقارئين لتبشر به المتقين بما ينالون من ثواب جزيل على إيمانهم ، ولتنذر به قوما يعادونك أشد العداء ، ويجادلونك بالباطل – لتنذرهم بعقاب أليم على هذه الخصومة والمجادلة فى الحق بالباطل . « وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ » .

٩٨ – (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) :

أى وأهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية قبل أهل مكة ، لما كذبوا رسلهم .

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) :

أى فهل تدرك بإحساسك منهم أحداً أو تسمع لهم صوتا ، فبعد أن كانت هذه الأمم تملأ الأرض ، وتتعالى على أنبيائهم وتعاديهم وتجادلهم بالباطل ، أصبحت قراهم خامدة خاوية على عروشها ، بعد أن دمرها الله على أهلها ، عقابا لهم على كفرهم ومخاصمتهم لأنبيائهم ، فليحذر أهل مكة هذا المصير وليعتبروا به وصدق الله إذ يقول : «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ »[1] .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤٥

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حســن على

رقــم الإيــداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٨٢ - ٥٠ - ١٩٨٢ - ٤٠٠٠ و٢٥

٢٥

26